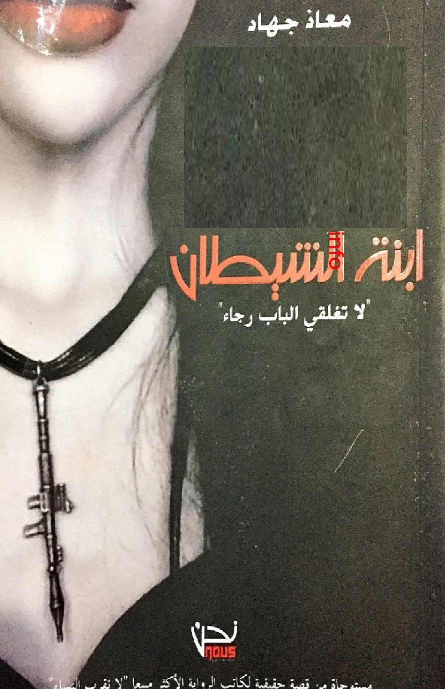

معاذ جهاد
ابنة الشيطان
"لا تغلقي الباب رجاء"
nous
قصة حقيقية لكاتب الرواية الأكثر مبيعا


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ابنة الشيطان

لا تغلقي الباب رجاء

معاذ جهاد

ابنة الشيطان

لا تغلقي الباب رجاء

الطبعة الأولى

الكتاب

ابنة الشيطان

تأليف:

معاذ جهاد

الطبعة الأولى

ر.د.م.ك. ISBN 978 - 9938 - 9583 - 2 - 4

تم إنجاز هذا الكتاب في

دار « نحن » للإبداع و النشر و التوزيع

28 نهج عبد المجيد بن جدو. حي الصحافيين. 2083 أريانة. تونس

الهاتف : 31 21 29 99 216+

البريد الإلكتروني: nousedition@gmail.com

إهداء:

إلى الجهات المسؤولة عن إصلاح الطرق، إذ أننا ظللنا نقطع الطرق سوياً حتى سقطنا في حفرة ما.. لذا أنا أحملكم كامل المسؤولية عمّا يحدث في هذه الرواية..
إلى الكنبة الوحيدة – التي وضعت في أول مقهى حلب- التي تتسع لشخصين ليجلسا بجانب بعضهما، وما احتوتنا يوماً.. في الوقت الذي كنتِ تفضلين فيه الكراسي الكثيرة..
إلى كل الذين أقسموا أنهم سيبقون معك.. ولم يفعلوا..

اعتراف:

أنا لست الكاتب الحقيقي لكامل هذه الرواية، أنا شخصان مني، أحدهما قتل في حادثة سير والآخر من أكمل كتابة هذه الرواية.

حدث الأمر في السادس والعشرين من حزيران المنصرم، حين دعاني معاذ جهاد الحقيقي للتمشي معاً، وعرض علي شيئاً لم يكن في الحسبان يوماً، أن أصبح أنا هو بكامل تفاصيله..

لن تصدق، وليس المفروض منك أن تفعل، لكننا نشبه بعضنا – شكلاً – إلى درجة كبيرة، الفرق أنه قوي، متماسك، واثقٌ من نفسه.. بعكسي، أنا الضعيف الهش الذي لم يكن.. ووافق أن يكون بديلاً عن نفسٍ قد توفت. اتفقنا أن أصبح أنا هو على شرطٍ قد أخللت به، أن لا أحب نفس الأنثى التي قد أحبها هو. وبعدما وافقت بسرعةٍ، أطلق قهقه كبيرة وقال :» أنت لا تعرف ما ينتظرك الآن» .. بعد فترة، عرفت كم كان صادقاً، وكم كنت أبلهاً بالموافقة على هذه المهزلة..

مقدمة أولى:

الكاتب الذي يكتب عن الحب يوميا لم يذقه يوماً كاملاً. لم أرتبط بامرأةٍ في حياتي، لم أحب أيا من معجبيّ، أنا أكرهكم جميعاً. كل محاولاتي لرفع معنوياتكم وإيهامكم أن هذه الدنيا جميلة، ولا زالت بخير.. هي محاولات غبية جداً. هذه الدنيا أصبحت لا تطاق، لا تطلبوا مني أن أكون قوياً دائما وأقول أنني بخير، أنا لست بخير. ضحكاتي مصطنعة جدا، وقوتي ليست سوى دراما، أنا فارغ من الداخل، محبط جداً، هش ومريض إلى حد لا يوصف، أنا مجرد بلاستيك.

هذه الرواية عن قصة حقيقية للكاتب، ستسألونه وسينفي الأمر، لا تصدقوه، أنا أكتب من أعماقه الآن، أما هو.. هو تحت جرعة زائدة من خيبة الأمل.

مقدمة ثانية:

إن ألم المخاض الذي يشعر به الكاتب عند إخراج شيءٍ ما إلى النور أشد قسوة، وإن أقسى ما قد يفعله الكاتب أن يعري نفسه في صفحاتٍ أمام جمهوره، وأن يلقي بنفسه مصلوبةً على الأوراق.. ذلك يعني أن حياته الشخصية اصبحت ملكاً للعامة، وأن ثمن حياته أصبح بثمن كتاب.

كنت قد اقتنعت أنه لا يتوجب علي نشر هذه الرواية بتاتاً، إلا أنه في نهاية الأمر، أدركت أن عدم نشر هذه الرواية هي بمثابة إجهاض طفل، وأنا مستعدٌ لقتل نفسي على أن أقتل أحدهم. في الواقع.. أنا أقتل نفسي الآن بنشر هذه الرواية.

كتبت هذه الرواية لتقرأها فتاة واحدة، لكن القدر دائماً أقوى، وسألت نفسي عدة مرات، أتغني الكتابات عن امرأة عن امرأة؟! وكنت اسأل «ماذا استفدت من دخول تلك الفتاة في حياتي وخروجها بكل تلك السرعة؟!» دائما ما كانت الإجابة العدم، لكنني اليوم أريد شكرها، فلولا

كل ما حدث، ما كتبت هذه الرواية.. هذه الرواية بمثابة رد اعتبار لكل ما حدث.. ولا ضير في المزيد من الشهرة والنقود..

«بعد أن يتم نشر هذه الرواية.. سيلاحقونك، سيحاولون الثأر منك، سيستخدمون أقذر الأساليب لقمعك، نشر كل التهم الباطلة، سيحاولون ما استطاعوا تلطيخ سمعتك. أنت تدرك ذلك، لكن يتوجب على جمهورك أن يفعل».

إذا قلت لكِ، في نهايةَ الأمر.. أن الأمر انتهى..
فلا تصدقيني..

ملاحظات أخيرة:

- في التصميم، لا يستحسن استخدام نوعين من الخطوط في نفس الصفحة، إلا أنه سيكون شيئاً من الحادي بنفسي أن أستخدم الخط ذاته لابنة الشيطان ومعاذ جهاد.. لذا وجب التنبيه..

- نهاوند مقام موسيقي، وصفه أحد الأصدقاء بأنه «المقام المزاجي»، إذ أن له طابع مناسب للحزن، وطابع آخر مناسب للفرح، مزاجي جداً هو..

- مدينة نهاوند هي مدينة إيرانية، أسسها داريوس الأول، تشتهر المدينة بخصوبة تربتها، وتوفر مراعيها، وتشتهر بصناعة السجاد.

- معركة نهاوند، هي معركة وقعت بين الفرس والمسلمين بقيادة النعمان بن مقرن. انتصر فيها المسلمون، إلا أن النعمان كان قد قتل في المعركة، وبانتصار المسلمين، انتهى حكم الدولة الساسانية في إيران بعد أن دام 416 عام.

*الملاحظتان الأخيرتان مأخوذتان نصاً من مقالات متفرقة.

«أربعٌ وستون يوماً قبل صدور رواية لا تقرب النساء»

من نهاوند إلى معاذ

كاللحظة الأولى.. خوف، خجل، وحاجةٌ ماسة لحضن دافئ وكلماتٍ مطمئنة، ولكن لم يكن منك إلا أن تشكك في مصداقية حبي، ومصداقية تلك الكلمة الواحدة والوحيدة التي استلزمت مني شجاعة فارس عودة، بحجره الواحد والوحيد، في مواجهة تلك الدبابة الواحدة.

ثم تتركني أمضي بقية الليلة - ليلتي الأولى وأنا امرأة كاملة - وحدي ..

ملاحظة أولى:_ الشعور المذكور فوق لا يعبر بالضرورة أنني قد جربته.

ملاحظة ثانية:_ تصبح المرأة كاملة عند اعترافها بالحب.
لم أكن أشك للحظة، أن لحظة اعترافي لأحدهم بالحب، ستكون فاشلةً إلى تلك الدرجة. أما الآن، فأنا لا أطلب منك شيئاً، لا أن تتغير ولا أن تغير شيئاً، فقط، ركز على توقيع روايتك، واجعلني فخورة..

الفصل الأول

الانفجار العظيم

الذي استمر بالرقص إلى آخر الموسيقى، لم تكن أذناه تسمعان شيئاً غير الموسيقى، كان صوتها واضحاً جلياً، أما في وقت الأصوات الأخرى التي كانت تصرخ به «توقف، توقف..» كانت قدماه تطرقان الأرض، إيقاع قدميه أخفى الصراخ ذاك..

00:00 _ 2016/8/4 يوم توقيع الرواية:

لم تنم عيناي بعد، أربع عشرة ساعة متبقية، ثمان مئةٍ وأربعون دقيقة، خمسون ألف وأربع مئة ثانية تسير رويداً رويداً، وكأن وظيفتها الآن إغاظتي بكل ما أوتيت من بطء. والوقت انتصارك، وجعك، ومنبع الحنين إلى نفسك وإليها.. أربع عشرة ساعة ستقلبك كائناً آخرا، أما أن تعيش في فردوسٍ وإما أن تنقلب نورك ناراً وتحرق واقعك، وفي الحالتين.. الأمر أفضل من العيش على رمش طير، والسكون على حالٍ واحدة هو أكثر الأشياء خيبة، والجمود هو من يردي النفس، ويرديها ضعيفة هشة مبالغٌ في احتقارها لنفسها، وتوقها للموت بكل ما أوتيت من وجع..

لا أعرف كيف أمكن لأولئك أن يستمروا في فعل شيءٍ واحد لمدةٍ طويلة من الزمن! الروتين ذاك دون أدنى تجديدٍ- مع أنني قد جربته فترة طويلة قبلاً- إلا أنني الآن غير قادرٍ حتى على شرب كأسين من الماء من نفس الصنبور، غير قادر على تمشيط شعري بالطريقة نفسها يومين متتاليين، أو حتى على التفكير في الأمر نفسه

مرتين.. هي فكرة ٌ واحدة من بالغت في سؤالها لنفس
«هل حقا قد قضيت سبعة أشهر في رحم أمي استعداداً
للهبوط إلى هذا العالم؟! سبعة أشهرٍ كاملة في مكانٍ واحد
؟!» ثم أغمض عيني وأنفي « إن ذلك استحالة»..

لم أملك من قبل متسعاً من الوقت يجعلني أفكر في ذلك
لكن الوقت الآن يتسع.. يتسع بما يكفي..

في اللحظة الأولى، كنت متسابقا شرهاً مع خمسة ملايين
حيوان منوي أخر يشاركونني السباق نفسه. لكنني ولسبب
أجهله إلى الآن، كنت أسرعهم، أقواهم، أكثرهم تشبثاً
ً بالحياة، وأقلهم حظا في النجاة منها، لأخترق شيئا
سألتصق به مدةً طويلةً جدا.. مدة ستكفي لجعلي بطيء
جدا ً، ضعيف إلى درجة الانكسار، وتجعلني أحاول
الفرار من هذه الحياة في أقرب فرصة ممكنة..

في البدء، لأكون صريحا ً.. ابتدأت حياتي بأنانية، حقد،
كراهية ونرجسية، وكما آدم بمعصية، وكمثل ما فعل ابن
آدم فعلت. كنت شرها إلى الحد الذي قتلت فيه حيوانين
منويين أخريين استطاعا الوصول إلى ما وصلت إليه
ليشاركانني المكان نفسه.. ولكن ألا يحق لي أن أنفرد
بشيء. واحد بمكان. واحد وحدي؟! أيجب أن أبدأ حياتي

مع اثنين يشاركانني المكان الضيق هذا مع ندرة الغذاء والهواء؟!

في بادئ الأمر، كان ذلك المكان يبدو الأبد الذي ألتُ إليه، و لم أعرف وقتها أنني سأغادره بعد فترة وجيزة.. لذا قتلتهم، «المكان والغذاء لا يكفيان» تحججت..

الأمر نفسه يحدث على الكرة الأرضية يومياً، «الغذاء والمكان لا يكفيان» نبرر لنفسنا قبل أن نقتل، ونظن أننا ستمكث ها هنا إلى الأبد..

في الأشهر الأولى، كان الشيء يحدث تدريجياً، وأنا أنمو شيئاً فشيئاً، لم يكن بالأمر المزعج بعد، لا لي ولا لأمي، ما زلت خفيفاً عليها وخفيفاً على نفسي. دام ذلك إلى أن بثت الروح فيّ، فثقلت عليها وعليّ..

أمي وقعت —وأنا في رحمها- ثلاث مرات، خلقّت — على ما يبدو — فقداناً في الذاكرة، وطريقة غريبة في التفكير، و جرحين.. أحدهما زال قبل العاشرة، والآخر ما زال يقبع في أسفل قدمي. وقتها — في الثلاث مرات — قاومت كثيراً الموت إلى الدرجة التي أقوام فيها الحياة الآن.
وماذا يفعل الطفل في رحم أمه؟ أتراه يفكر في الحياة الأخرى ما بعد الولادة؟ لا لا يفعل، أنه لا يعلم في ذلك

الوقت عن وجود حياةٍ أخرى ستبدأ حينما سيغادر من
المستنقع إلى مستنقعٍ آخر أكثر اتساخاً، عندما يغادر من
الرحم إلى الدنيا، من المكان المتسع جدا في رحم أمه إلى
مكان ضيق كهذا، أقل قوتاً، أكثر ضجيجاً، أقل دفئا،
أكثر اختناقا، أقل راحة وأكثر مللا..

في الأشهر الأربعة الأولى، كان الأمر مملّ جداً، لم أكن
افعل شيئاً.. أخبروني فيما بعد أن الحبل السرّي – جزاه
الله كل خير – كان ينقل الطعام إليّ طوال هذه المدة، وأننا
أكتفي بالنمو، تخيل أن الكثيرين على هذه الأرض يفعلون
هذا الأمر تماماً بانتظارهم للحبل السُرّي ليمُنّ عليهم
بالغذاء ويكتفون بالنمو فقط ؟!

في الشهر الخامس، كان أجمل ما حدث حينما سمعت أول
دقة قلب التقطتها أذناي، حينما نضجت حاسة السمع لدي،
الدقة الأولى، الأنثى الأولى.. دقة قلب أمي. استمريت في
سماعها مدة طويلة، بعد وقت.. أصبح صوت التنفس –
قالوا لي فيما بعد أنه كان التنفس- هو من يشغلني..

استمرت الأشياء بجعلي أنشغل عن دقة قلبها إلى أن
استطعت سماع أول صوتٍ يأتي من العالم الآخر –
دون أن أعرف أنه العالم الآخر- الخارج، بعيداً عن هذا
المكان، كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوةٍ -مع أنني لم

أملك الكثير وقتها- أن أصل إلى أقرب نقطةٍ تمكنني من سماع أي شيء بعيداً عن دقات قلب أمي ومجرى التنفس لديها، من ذلك العالم الآخر المليء بالضجيج والفوضى التي كنت أحسبهما جميلتين في بادئ الأمر..

الآن.. أنا مستعد للتضحية بكل هذه الأصوات مقابل العودة ها هناك وسماع صوتين فقط..

في الثلث الأخير من المكوث هناك، نضجت أطرافي وشفتاي، واستطعت -لأول مرة- أن أتحسس إبهامي بأطراف شفتي.. يا لشعور أطراف الأصابع ذاك!!

في اللحظات الأخيرة هناك، كان كل شيء ينمو بسرعة ويتغير. كان هناك شيءٌ ما جعلني أشعر بالاهتزازات الكثيرة، البريق، اللمعان، الضجيج .. والهدوء أخيرا..

المفارقة في الأمر، أن الأطفال يأتون إلى هذا العالم عراة، إنهم يعلمون أنه عالم قذر..

الفرق الأكبر، أنه ليس من الصحي بتاتاً خروج الجنين من رحم أمه إلى هذه الحياة دون أن يبكي، إنها الإشارة الأولى لما سيحدث لاحقاً، مع أننا سنملك ما يكفي من الوقت للبكاء.. فلما العجلة؟!

والآن، وأنا أملك من الوقت ما يطول حتى ليشعرني أنه

لن ينتهي أبداً، وأنا الذي ما سوّلت لي نفسي في الحرب السابقة، أن أشك ولو للحظة أنني سأتخذ مجلساً كالذي سأتخذه غداً..

قال لي أنهم - وإن اضمحلوا - لن يكونوا أقل من ثلاث مئة ما جاؤوا إلا ليستمعوا إلي. ملق. عصاي لتلقف أسماعهم، وأنا الذي ما اتكأت في موضع حاز اثنين غيري خجلاً، وأنا الذي ما ملكت إلا هدوئي وعزلتي في السابق. وأنا الذي إذ وافقت على أن أكون كاتب هذه الرواية وكأنني ألقي بنفسي إلى التهلكة، وأنا الذي ما ملكت معصماً كاتباً قبلاً ولا لساناً.

الساعة 8:47 صباحاً - يوم توقيع الرواية

بدأت بالتأخر من هذه اللحظة، اللحظة التي صحوت فيها. تأخرت ساعتين عمّا كان يجب أن يكون حينها، وعشرين سنة عمّا كان يجب أن أكون عليه. صحوت كمن نجا من الغرق، وأنا الذي ما رأيت البحر يوماً. غسلت وجهي منه، حملقت في المرآة، إلى أحدهم ينظر إليّ فيها، كم مر عليك الدهر، وتقلبت بك الأحداث لتصحو بكل هذه الدهشة؟ فيك ما فيك إلا من نفسك، ماذا كنت قبل هذا؟ سمكة؟ تخاف أن تطفو على السطح، تخاف أن تتنفس الحياة وأن ترى وجه ربك؟ تحبذ الأماكن الضيقة، الوحدة والقاع ؟ الهدوء يا ابن الهدوء! لك لسان معطل، وقلبٌ هش، وروح خفيفة تقتل بسرعة..

وأنت الذي سيقف اليوم، بكامل أناقته أمام الجمع، وما كنت قبلاً تستطيع الوقوف أمام نفسك خوفاً منها إن عاتبتك؟ كم نسيت في الجيب منتظراً السيارة أن يمرو عليك ويشتروك ولو بثمن بخس؟ وأنت اليوم -بكل ضعفك- قد أصبحت عزيزا، أشككت ولو للحظة أن الله سينساك في جبك وفي ضعفك؟ وأنت الذي تنساه في قوتك.

وتنفست المكان محملقاً في وجهي الذي بدا أكثر من سابقه صفاء، وأكثر بهجة وأقل خوفاً..

ارتديت ملابسي، وقد كان والدي ينتظر بسيارته بعد أن صحب الكثير من الروايات التي كانت تجلس هادئة في المقعد الخلفي للسيارة، وهي التي ستنفجر عما قريب..

ووصلنا الجامعة وكان الاسم – اسمي – يتردد في الأمكنة كثيراً، الصور التي قد علقت للرواية في الأرجاء، العيون التي تصوب سهامها علي، وأنا الذي لا يستطيع صبراً لساعتين.. كان لا بد أن أفعل شيئاً أقلل فيه رجفات قلبي ودقاته وأن ألهيه بشيء ما..

وكان الحفل قد بدأت ساعاته تقترب، وأنا أرى نفسي تضمحل شيئاً فشيئاً. كانت الساعة تدور وكنتُ قميصاً ووضعتُ فيها، وكلما دارت هي تقلصتُ أنا..

2:00 ظهرا- توقيع الرواية

في هذه اللحظة، اللحظة المثالية لأصرخ فيها أمام الجمع أنني الآن موجود، وأنني لا أخجل من نفسي رغم انكساراتها المتكررة، ورغم الانهيارات الكثيرة في السابق، إلا أن هذا المتكأ يعطي عينيك بريقاً لم ترتدياه من قبل..

وارتداء قميصك كيف يمكن أن يستحيل صعوبة، لولا ما فيك من الخوف والارتباك والدهشة ما يجعلك تظن أنك ما ارتديت قميصاً من ذي قبل، وأن كل ما حدث سابقاً لم يحدث، وأن كل شيء كان قبل هذا ما كان شيئاً، وأن الأشياء بدأت بالتكون من هذه اللحظة، وأنك أنت بكل جبروتك ما كنت أنت، وما كانت الأرض أرضاً لولا الانفجار، إنه انفجارك العظيم يا صديقي..

غسلت وجهي عدة مرات.. ثم تسمرت قليلاً وأنا أعيد ناظري إلى المرآة الموضوعة أمامي في الحمام السفلي للقاعة التي سيحدث فيها ما سيحدث، في من الخوف ما في بلد دب فيها الطاعون، وما في أمٍ تأخر وليدها عن البيت بضع ساعات، وما في دورية جندٍ وقعت في كمين

مقاومة، وما في عاشق. رأى مبتغاه مع صياد. آخر وفر
هرعا.

استنشقت ما تبقى من أكسجين المكان الذي كدت أ
أستنفذه في شهقاتي المتسارعة، ثم لملمت قوتي من
المكان وصعدت الدرجات، واحدة تتلوها أختها تنسحق
تحت قدمي، وأنا أرى نفسي أعلو وأعلو.. كم لبثت على
فرارك من نفسك وقوقعتك بعيداً عن العامة؟ يوماً أو
بعض يوم؟ قل ربك أعلم بما لبثت، فاذهب بورقك هذه
فانظر أيها أزكى نصاً واقرأه..

مختبئاً بجانب المسرح مرتدياً البزة الرسمية تحضن
بداخلها القميص الأسود ذاك، وقلبي الذي كاد أن يفر
لولا أن رأى برهان ربه، لم تكن عيناي بعد قادرتين
على رؤية شيء غير المسرح مفترشاً بالبلالين الملونة
والتفاح الأحمر كشبيه الذي قد قتل سنووايت قبلاً، ولا
شيء آخر..

أذناي من كانتا قادرتين على تصور المشهد أو رسمه
إلى ما يقرب الواقع، في الجهة الأخرى، حيث يحدث
ما يحدث، كان صوت مقدمة الحفل في وصف كاتب
هذه الرواية يزداد بريقاً وبريقاً يتلوه صوت تصفيق

الجمهور، هناك.. لن يكونوا أقل من مئة شخص، الصوت يوحي بالأمر، وكلهم - أو معظمهم - ينتظرون اللحظة التي يرون فيها وجه من شغل العامة في الأونة الأخيرة.. من يفترض أن يكون وجهي..

على صوتها تقول «والان نترك المسرح لكاتب النص معاذ جهاد»، وعلى إيقاع دقات قلبي قبل أن تعتلي الموسيقى المكان تسمرت ونسيت الدور كاملا ً، صفقوا .. كثيرا ً، لكن قدميّ نست دورهما ووقفتا تنتظران الله أن يمنّ عليهما، وأن يضرب موسى بعصاه البحر فينشق فأمشي ما بين خوفي وخوفي..

وانشق البحر، وأنا الذي ما زرته يوما ً، وتحركت قدماي كالذي ما أتقن المشي بعد وما زال معتادا على الحبو كنت، مغمضا ً عيني إلا ما جعلني أرى نصف متر ٍ أمامي وقد اهتديت إلى كرسي ٍ وضع جانبا ً واستلقيت عليه..

كان صوت تصفيق الجمهور ما زال يعلو ويعلو، وإن كانت دقات قلبي تنافس شراهته وتكسر قوته..

وهداني الله إلى قنينة ماءٍ وضعت إلى جانب الكرسي بلت ما اسطاعت من جوف فمي، ورفعت رأسي إلى الدرجة التي استوى فيها واستوى المشهد أمامي..

القاعة التي ما برحت تمتلئ بمئتين في كل مناسبة، كانت أن تنفجر بمئتين على الأقل ممن لم يجدوا متكأً إلا الحائط أو العدم بعدما امتلأت المقاعد التي تبلغ الثلاث مئة ونيف.

وكنت ما أزال أرى الأشياء باهتة، غامضة وواضحة، سوداء وبيضاء، والضجيج -كل الضجيج- قد اتخذ من أذني مرقداً، ومر ماضٍ سحيق أمام عيني، وكنت أراني أفرّ من الشوارع وأسحَقُ بسيارات لا تنتهي وشوارع تطول أكثر وأكثر ومر شريط حياتي أمام عيني تباعاً..

طفل صغير يولد من بطن أمه وقد تأخر بالبكاء، ثم تبكيه الحياة تباعاً، أنمو رويداً رويداً.. طفل في الخامسة لم يستطع ترتيب الكلمات إلى الآن، الضجيج الذي مر عليّ من قبل، وانكساري أمام نفسي، ثم وقد رأيت نفسي تحت سيارة ملطخاً بالزيت وعوادم السيارات ثم ها أنا هنا من جديد..

وكنت وكأنني قد عدت إلى ماضيّ منعقد اللسان، وإذ احتجت الله ربي أن يمن علي، ويحلل عقدة من لساني التي عقدت للتو علهم يفقهو قولي، وأنا الذي لم أجد عضداً أستند إليه في هذه الساعة.. ساعة القيامة، قيامتي أنا..

ونهضت، بكامل ثقلي وكامل عنفواني، ووقفت أمام الملأ ما في جعبتي إلا الله، ولا أخشى سوى الذنب على قلبي..

- ولاو ما أكثركم (موجها الحديث إلى الجمهور).
- صلّ عل النبي طيب..

صرخ أحدهم وامتلأت القاعة بالضحك..

وإنه سبحان الذي أسرى بي، من مرقدي حيث كدت أن أختنق بعوادم السيارات متسخاً بها إلى متكئي هذا، وقد ازدنت ببزة رسمية جعلتني أشبه بنجم ذاك الفيلم الواحد والوحيد الذي قد شاهدته في السينما من قبل، وإنه سبحان الذي عرج بي من أسفل سيارةٍ كنت أصلحها إلى مسرحٍ أعتليه الآن، فليبارك الله قوتي وليرحم الآن ضعفي وليرني من آياته..

وأخذت نفساً، وأضيأت الأنوار في القاعة، واستطلعت الجالسين كمن يبحث عن فريسةٍ تعجبه، وكنت أنا الفريسة التي حملق فيها الجميع، وكدت أن أسقط لولا أنني استندت على ما قال لي « كن قوياً، الغزلان يميتها خوفها».

وبدأت وقرأت النصوص التي كنت قد حفظتها عن ظهر قلب، واحدة تلو الأخرى، وقد بدأ الجمع بالتصفيق مراراً وتكراراً، وأنا الذي كلما صفق أحدهم اشتد

ذراعي، ولوحت به حتى كدت أن أطير..
واستمر الأمر إلى أن اصطدمت عيناي بعينيها، تلك التي لم أرَها من قبل، ولم أرَ امرأةً تشبهها فيما بعد..

كانت تلك، التي استطاعت أن تسرق عيني من بين أكثر من خمس مائة شخص، وأن توقف التنفس عني لوهلة، وأنا أنظر في ابتسامتها تلك، ولولا أنني كنت قارئاً وقتها للجمهور لتوقفت وأوقفت ساعتي وعقارب عيني عليها.

في الكرسي المقابل لي تماماً، في منتصف القاعة، كمن تربع على العرش وأتى بي قارئاً نصوصي له فقط، كنت وكانت .. وكان الجمهور يضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحنا اثنين فقط، والله ثالثنا..

أتعرف كيف تحدث تلك الأشياء؟! أن يحدث أن يجنبك شيء ما دون سابق إنذار، أن يقتحم الجند البيت دون طرق الباب، أن تكون السماء مشمسة وأن يهطل المطر في الوقت الذي لا ترتدي فيه ملابس مناسبة؟ أن يحدث الكسوف فجأة، أن يطرق الباب على معصمك، أن تنطفئ الكهرباء أثناء نزولك الدرجات، أن تدوسك حافلة، أن تنكسر قدمك على سكة قطار قادم للتو، أن تسدد إليك رصاصة باتجاه القلب، أن تقع في حقل الغام، أن تسقط

من طائرة.. أو أن يجتمع كل ذلك معاً و تسقط في الحب؟
كنت أشعر بكل ذلك، بالجند الذين قيدوا قدمي واستاقوني إلى مكان ما، بالمطر الذي بلل قلبي، بكسوف عيني، بالباب الذي طرق مراراً وتكراراً على مدخل التاجي، كنت أرى نفسي أقع على الدرجات واحدة تلو الأخرى، وأرى نفسي أنسحق أمام قطارات ليس لها سبيل سوا ذلك الذي قيدت فيه، ورأيت إذ رأيت مسدساً عُبأ ذخيرة كلما نقصت إحداها ازدادت اثنتين، ورأيت نفسي في حقل كلما قررت أن أدوس قدمي الأرض انفجر لغمٌ آخر، وسقطت من طائرة وكلما وصلت الأرض لملمت وحلقت بي طائرة أخرى سقطت منها وهلم جرا، واجتمع كل ذلك.. وكنت أرى نفسي أهوي وأهوي..

أما هي، فبلا حراك كانت عيناها تصطادانني وترميان بي إلى المجهول، وأنا الذي أصبحت شخصاً للتو..

وأنا الذي قد تهت مراراً وتكراراً عن النص، وكلما تهت نظرت إلى عينيها فاهتديت، وأنا الذي قد آمنت أن الله رب هذه الأرض ومن عليها، وأنا الذي قد أيقنت أنه من أبدع مخلوقاً كهذا ألن يستطيع الخلق؟!

واستمريت وقد ابتلعتني.. وأنا وإذ كنت في بطن الحوت

قد فكرت، سأنهي القراءة وستأتي إلي كالبقية، وستوقع كتاباً وسأعرف اسمها وسيحدث ما سيحدث تباعاً..

وانتهيت من القراءة..

أيُ شاعر يملك قدمين بإمكانه الوقوف بعد هذا الأمر؟!

كنت في تلك اللحظة ملك النص وصداه، وكان اسمي هو ناموس المكان، وأعِدّت لي طاولة لأوقع عليها كتبي.. وجاءت ..

ووقفت إلى جانبي، وخيّلَ إلي -وأنا جالس- أنها أطول مني قليلاً لو وقفت، وخيل إلي أنني لم أرَ امرأةً بجمالها من قبل..

ومدت إلي الكتاب، وقد أوتيته بيميني، وكدت أن أقول هاؤم أقرؤوا كتابي..

- إيش اسمك لو سمحت؟
- عفوا؟
- إيش اسمك لو سمحت عشان أوقعلك؟
- بدون إهداء لو سمحت.
- حاضر..

****

وإنه لما بدأ ينفد ذلك اليوم، أحسست بذلك الإحساس الغريب عندما تفقد شخصاً ما وتعرف أنه لن يعود..

أتعرف كيف يحدث الأمر؟ ببساطة، عندما نشعر بالسعادة في يوم ما، فإن أول ما يجول في خاطرنا هي تلك اللحظات التعيسة التي عشناها من قبل، وندرك تماماً أن ملاذنا سيؤول إليها عن قريب، وأن كل هذه السعادة إلى زوال، وأن اللحظات التي نعيشها الآن لن تتكرر، وإن تكررت فلن نشعر بالسعادة التي نشعر بها الآن، وإن حدث سيكون شيئاً ناقصاً.. لذا لا نصل إلى قمة السعادة يوماً.

على العكس تماماً، فإننا عندما تلمس التعاسة شيئاً من عيوننا، فلا يحدث بتاتاً أن نتذكر السعادة.. بل نبالغ في تعاستنا، نعيشها بكل تفاصيلها، نعد الثواني وكأنها لن تنفد بتاتاً.. وكأن هذا الأمر سيستمر معنا إلى الأبد..

لذا، كثيرا ما نصل إلى قاع التعاسة ونادراً ما يحدث أن نصل إلى قمة سعادتنا، نحن مخلوقٌ تعيس بالفطرة، أجسادنا جبلت من الحزن..

لكن.. يومها، كنت أحاول جاهداً أن أسمح لما استطعت من الفرح أن يتدفق إلي، ناسياً اثنين وعشرين سنة مضت، وإنني لما كنت في غرفتي استمعت الى بعض من الموسيقى وبدأت بالرقص. وتذكرت عينيها فازداد بريق عيني انعكاساً على المرآة المعلقة في غرفتي، وكانت تبدو في خاطري أجمل بكثير وأنا أحاول تذكر تفاصيلها وما استطعت.. ولما تذكرت ضحكتها ضحكت، وأدركت أنها المنتظرة..

وعندما وصلت الساعة منتصف الليل، كان يجب علي أن أهدأ من جديد، وأن آخذ قسطاً من الراحة ومن النوم، وأن لا أفرط بالسعادة -بعد كل تلك - علها لا تنضب فلدي الكثير من الأيام المقبلة..

أطفأت النور، وفتحت شباك الغرفة، وكانت ليلة باردة وتلحفت وأغمضت عيني، وبدأت أفكر بالأشياء جميعها.. وبها..

***

الساعة الثالثة صباحاً.

كانت الرياح التي هبت ليلتها من شباك الغرفة قد أغلقت الباب، وأنا لم أكن أعي أن ذلك سيحدث، لكن الباب قد أغلِقَ وأدركت أنه سيأتي، قمت فزعاً محاولاً فتح باب الغرفة بأقصى سرعة.. لكن الوقت كان قد فات، إذ رأيته قد وضع كرسياً أمام الباب ووضع قدمه على الأخرى، وأشار إلي ضاحكاً بالجلوس.. وكانت تلك المرة الثامنة التي أراه فيها.. وبدأ خوفي من الأبواب المغلقة ينمو أكثر وأكثر منذ ذلك الحين...

- ماذا تريد ؟
- جئت أبارك لك..
- شكراً.. يمكنك الذهاب الآن ..
- **نحن نفعل ما نريد القيام به، لا ما يمكننا القيام به..**

حاولت تجاهله لإنني كنت أدرك أنه سيبدأ بمحاولة إغاظتي، عدت إلى السرير محاولاً تغطية جسدي من جديد..

- أستنام؟

- ساحاول

- نسيت.. أنت الآن كاتبٌ مشهور، عليك غداً الاستيقاظ باكراً، وفعل الأشياء الكثيرة التي يفعلها الكتاب، التي لا تعرف عنها شيئاً.

- وماذا يفعلون ؟

- لا يفعلون شيئاً

وعلا صوت ضحكته ..

- صرت معجباً بإحداهن ؟

لم أجب فأعلا صوته ..

- صرت معجباً بإحداهن؟

نافثاً الدخان من فمه وقد اقترب من النافذة ثم أعاد ناظريه علي ..

- لقد سألتها عن اسمها ولم تجب.. كم أنت أحمق

وبدأ يقهقه.. وظل طيلة الليلة يحاول إغاظتي.

الفصل الثاني

التكوين

في داخل كل شخص منا رواية.. أحيانا تصبح الأشياء أقل وضوحاً إذا ما تعمقنا فيها كثيرا..

اليوم الثاني من توقيع الرواية:

7:00 صباحاً

على صوت الهاتف يصرخ بي.. استيقظت، لكنني لـ
أكن سريعاً لأجيب على المتصل. من دون أن أرو
من كان، اتجهت إلى الحمام، فتحت الصنبور وفتحت مـ
تبقى من عيني المغلقتين، غسلت وجهي ويدي.. ثم عد
إلى الغرفة ملتقطاً الهاتف. كان ينال من فاتني اتصاله

فاعدت الاتصال به وبعد أن اطمأنيت عليه قال:

- ضروري أشوفك، بعد ساعة برام الله..

أغلقت الهاتف، وقد بدأ الخوف يتسلل إلي.. لهجة ينال لـ
تكن بتلك الحدة من قبل، شيء ما يحدث..

***

الساعة 8:19

أمام دوار المنارة قابلته، صافحني دون شهية محملقاً
في عيني وأعلى جبهتي، وقد سار بنا دون أن يتكلم حتى
خاطبته:

- كيفك؟

- تمام الحمد لله، كيفك انت؟
- الحمد لله..

ودون أن يرد شيناً أكمل سيره متفقدا اياي، وكأنه يبحث في جسدي عن سرٍ أضاعه، أو عن شيء ما قد فرّ منه إلي، وقد سألته:

- إيش في؟

مكملا التحديق في، متفحصا ً إياي من رأسي إلى أسفل قدمي، وكأنني جرح غائر فرٌ من مقص الطبيب دون إغلاق. توقفت لبرهةٍ هازا ً راسي وواضعاً يدي اليسرى على خصري ناظرا ً إياه أن يبوح بما كان يخفي، توقف.. أدار وجهه كاملا ً إلي وقال:

- تروح نشرب إشي؟
- وبتحكيلي إيش في؟

على طاولة وُضِعَت في الطابق الثاني بجانب شباكٍ يطل على شارعٍ من شوارع المدينة استندت مقاعدنا، واضعا ً حقيبتي أسفل الطاولة، وشادا ً الكرسي إليّ علّي أجعل يديّ ترتكزان على الطاولة بوضع أكثر راحة ً، ملتفتا ً إليه بكل برود سائلا ً إياه:

- طيب، وإيش في هلا؟
- إيش تشرب؟
- أي إشي
- خليني اشربك على ذوقي اليوم، ثنين قهوة بسكر !
سمحت (رافعاً صوته إلى أحدهم يعمل في المكان).

وقد تنهدت، ومسحت بكفي أعلى جبهتي التي بدأ
بالتعرق حتى قبل ان اعرف ما الامر الذي الصق بيوسف
كذباً، فانا -وفي الاونة الاخيرة تحديداً- لم افعل اي امر
خاطئ بعكس ما يبدو على تصرفات ينال.

مطلقاً ناظريّ إلى الشارع متفقداً المارة كعادتي، المز
صاحب الصحف، الفتاة الصغيرة التي شدت إزرها ببنطا
والدتها، حامل الشاي بكف واحدة.. قبل أن تقاطع
إحداهن من جانب الطاولة..

- لو سمحت، مش إنت معاذ جهاد؟

وقد أدرت رأسي بشبه زاوية كاملة رافعاً عنقي عن
مستوى عيني بعينيه، وقد رسمت نصف ابتسامة عن
شفتي

- اه.. أنا معاذ جهاد.. تفضلي؟

مدت يدها إلي مصافحة ً، فمددت يدي على خجل ، وقد صافحتها قبل أن تكمل:

- مبروك توقيع روايتك، كل التوفيق..

وقد لملمت نفسها بعد أن أهدتني ابتسامة، وأدارت وجهها وقد انصرفت، وأنا ــوكعادتي- تتبعت بقاياها قبل أن يقطع عامل المقهى المشهد ويضع الفنجانين على طاولتنا، ثم أعدت نظري إلى ينال المحملق في -على ما يبدو - منذ فترة ليست بالقليلة، وقد تبسم وكأنه انتصر في أمر ما..

وقد حككت شيئاً من ذقني بيدي اليسرى، ناظراً إليه بعينين واثقتين منتظراً إياه أن يتكلم

- مطول قبل ما تحكيلي إيش في؟

- أنا بستنا إنت تحكيلي إيش في؟

- عن؟

- مبارح.. قبل توقيع الروايةكان اشي غريب تنسى أكمن اسم من صحابك!

- ينال.. مالك؟ كنت مرتبك مبارح..

- انزعجت؟ [illegible] و [illegible] عنك؟

- ممكن..

- [illegible] قميص أسود [illegible] و [illegible]

تقولي إن هاد لون شؤم ؟
- حبيت أكسر هاي القاعدة..
- خليني اصدقك.. طريقة إلقاءك ليش تغيرت؟
- إرتباك شوي، حبيت أغير.. ينال إيش بتحاول توصل؟
- البنت..
- مالها؟
- سلمت عليها وانت الي ما عمركش سلمت عبنت وكنت دايماً ترفض..
- ما حبيت تحكي عني شايف حالي من بعد الرواية..
- ممكن أفهم إيش في؟
- انت الإيش في؟؟ اشرب قهوتك..

وقد أمسكت بفنجان القهوة ذاك، وأزحت ناظري عنه، وقد تلبدت خوفاً قبل أن أتجرع شيئاً من القهوة.. شيئاً فشيئاً كنت أشربها وقد ساد الهدوء المكان إلا من أصوات كانت تأتي من هنا وهناك.. معيداً ناظريّ إلى الشارع فاراً من نظرات ينال التي ما زالت تتفحص المجهول فيّ قبل أن أضع فنجان القهوة جانباً وأعيد بناظري إليه..
- وهلكيت؟

قد سأل، فازددت تحديقاً به، وأخذت نفساً قبل أن أدرك أنه قد كشف أمري لا محالة، وأنني في هذه اللحظة

ارتكبت إثماً عظيماً حال بجعله يتأكد من شكوكه، دون أن أعرف ما كان ذلك الإثم قبل أن يكمل:

- كيف القهوة؟

- منيحة..

وقد ازدادت ضحكته، وقبض بأسنانه على شفتيه محدقاً إلي بشراهةٍ بعيون محقق:

- هاي أول مرة بتشرب قهوة بحياتك، معاذ جهاد ممكن يغير كل إشي، بس بشربش قهوة يا عزيزي.. حابب تحكي مين إنت قبل ما أعملك طوشة أو أجيبلك الشرطة؟!

وقد أدركت أن الأمر ما عاد يحتمل الإخفاء والإنكار، وأن عصا يوسفَ قد لقفت ما صنعتُ، وما حاولت إخفاءه..

- بنفعش نحكي هون..

في حديقة الاستقلال، وإلى جانب شجرة تحاول ما استطاعت أن تصل السماء، وعلى مقعد خشبي كنا قد جلسنا عليه، وبعد أن شربت من الماء ما يكفي لأروي لقصة كاملة، أعاد سؤاله.. «مين إنت ؟ ممكن تفهمني يش الي بصير ؟».

- رح أبدا من بداية القصة، رح أحكيلك كل إشي..

هو خبرني إن رح ييجي يوم لازم احكيلك فيه كل إشي أصلاً.

- مين هو؟

- معاذ جهاد .. بدت القصة من هون..

الفصل الثالث

صراع ابني آدم

بعد أن قتل ابن أدم أخاه، هل تزوج الجميلة تلك أو أنه لم يفعل؟

2016/3/28

ثلاثة جنود في الأمام وراء مكعبات حجرية كبيرة يكتسون ما استطاعوا من الملابس الواقية والرصاص، أربع سيارات مجندة إلى الوراء قليلاً، جندي إلى الوراء أكثر، مخاطباً القناصين بالعبرية « صوبوا تجاه الأقدام، لا نريدهم موتى، نريدهم عاجزين»..

أمام المكعبات الكبيرة، وسط المواجهات الغاضبة، ناضلت حاويات القمامة الملقاة أرضاً، و إطارات السيارات المشتعلة أكثر مما ناضلت الحكومات العربية جميعاً..

ما وراء الحاوية.. الشباب يرتدون قمصانهم على وجوههم، الحجارة ترمى بشكل غير منظم هو الأقرب للتنظيم، ودار المقلاع في يد الصبي ذي الخامسة عشر ربيعا أربع دورات قبل أن يلقى مسافة تزيد عن الثلاثين مترا. الأمر أشبه بلعبة كرة قدم، دفاع وهجوم، كر وفر، فريقين اثنين، دون حدود لساحة اللعب، الأرض كلها ساحة، وأنت مقاتل، الحكم غير موجود بتاتاً، لا تتوقف اللعبة إن سقط أحدهم أرضا، بل على العكس تصبح اللعبة أكثر إثارة وأشد بطشاً إن وقع أحدهم، الفريقان غير متكافئين، ومن لا يسقط هو من يبقى..

والصراعات الطويلة ولدت بدايات الحرب للتو، لكنها ولدت ناقصة لشهرين. كانت ولادة قيصرية لم يكتمل فيها جسم الجنين ولا عقله، كانت مبشرة بالموت السريع للقضية. ستنتهي الإنتفاضة بسرعة كما الجنين. الكل راهن على ذلك، إلا مقلاع طفل ظل دورانه يعلن أن الإنتفاضة قائمة إلى الان.. لكن الذي لا يمكن إنكاره، أن الشعب في السنوات الخمس عشرة التي تلت الإنتفاضة تلك، قد اعتاد الأمر، بدأت حياته تسير رويداً رويداً إلى الإستقامة، وكأن المحتل أصبح واقعا متقبلا.

إن فكرة التأقلم قاتلة، أتعرف متى أبهم حق العودة؟ عندما تحولت خيم اللاجئين إلى طين، لم يكونوا خائنين بتاتا، وربما لو كنت مكانهم لفعلت فعلتهم.. لكن، من هذه النقطة بدأت الأفكار تنفلت منا.

متى تسربت فكرة الدولة على حدود السابع والستين إلى عقولنا؟ عندما فتح المحتل الأبواب أمام الأيدي العاملة لتكسب ثروة من أرضها المحتلة، وعندما زرنا حيفا مرتدين نظارات شمسية ومداعبين البحر تبسما، وكأنه غريبٌ جاء من منهاتن.

ذلك الجيل.. جيل أوسلو الذي انكبت عليه الأقوال بالضياع

والفقدان، هو الوحيد القادر في هذه المرحلة على الصراع والإستعادة والوصول إلى كينونته. ما قبل الإنتفاضة، تساءل الكثيرون عن هذا الجيل، وماذا بإمكانه أن يفعل.

ذلك الشاب الذي مشط شعره وأنزل بنطاله قليلا ولبس عقدا، وتلك الفتاة التي أكثرت من أحمر الشفاه، وأدمنت مواقع التواصل الاجتماعي، ألقوا عليهم الكلمات التي جعلتهم كأنهم من أفقدوا الشعب أرضه.

وعندما بدأت الانتفاضة، نزل ذاك الشاب ليمسك مقلاعا، وتمسك تلك الفاتنة بحجر. تسائل الجميع « لماذا هؤلاء يقاومون ؟» ونحن شعب مفصوم ذاتيا، نريد التحرر ولا نريد المقاومة، ونثور على الثائر حتى يستكين.

وفي فلسطين.. لا يزداد العمر والتجارب بمرور السنين فقط، كل حاجزٍ أمني، رصاصة، أو غاز مسيل للدموع تزيد في عمرك. الكثير من الأطفال يخرجون من بيوتهم بأعمار لا تزيد عن السابعة، ويعودون إلى البيوت شباناً، أناسٌ كثيرون شاب شعر راسهم على حاجز قلنديا.

ورصاص العدو في نهاية الأمر لا يفرق بين أحد..

لذا لا تعشقي فلسطيني يقاسمك الحب مع وطنه، فيخير إما

أن يعيش لأجلك أو إن يموت لأجله، لا تعشقيه فلسطيني بتاتا، هو سيضرب عنك ويشرب ماء وملحا، ستمضيان شهر العسل في الأنفاق، ويتركك في ليالي اكتمال القمر ليخطف الجنود.

أحبيه خائنا لوطنه، ستكون حياتكم جميلة جدا في فنادق إسبانيا، ستحتسون النسكافيه صباحا لا الموت المؤقت، ستشاهدون الأفلام الأجنبية على شاشات التلفاز لا صراع طفلةٍ لأجل البقاء، وبكاء أم فقدت رضيعها للتو، لن تقفوا على الحواجز ساعتين، ولن تكونوا قلقين بتاتا بشأن الأسرى أو الجرحى، ستكون حياتكم مثالية جدا، وعندما ستنجبون طفلا ويكبر ليسألكم عن جنسيته، في تلك اللحظة بالذات، سيجتاح الصمت لسانكم.

وراء جدارٍ أراد أن ينقض، فأقامه بالحب.. مدّ قدمه التي امتلأت بالدماء أماماً، واستلقى إلى الجدار فأقامه. أخذ نفسا ونظر إليها وهي تنزع وشاحاً - كانت قد تلثمت به - وتشده على قدمه لتوقف الدماء لفترة وجيزة، مسحت بيدها اليمنى عرق جبينها، وباليسرى شدها هو إلى حضنه، وسرق من شفتيها قبلة، طالت كثيراً..

وقع خلالها – القبلة - أربعة جرحى أحدهم في القلب..

نافثاً الدخان من فمه ضاحكا، وقد نظر إلى أحدهم بجانبه لا يعرفه « بيوسوا بعض، هو وقته؟!»

أوما إليه صاحبه وهو يخاطبه ببسمة صغيرة.. وكان ذلك الرد كافياً.

أعاد إلى فمه سيجارته، استنشق شيئاً منها، ثم طردها من فمه ليطرد بقاياها بعدها.. كانت عيناه تستطلعان المكان كمن يشاهد فيلما سينمائيا لم يكن هو أحد ممثليه..
إلى أن استوقفته هي، الفتاة التي أمسكت بأربعة من الحجارة تنتظر الفرصة المثلى لتلقيها وسط الدخان المنتشر في الجو..

أدار وجهه مرة أخرى « مطول وانت حامل هالعلم؟! شوف البنت هذيك، عليم الله جننت سماهم»
- وانت هاي السيجارة الثالثة، زي كانه الدخان إلي في الجو بكفيش؟

أعاد استنشاق جرعة أخرى من السيجارة، ثم ألقى بها أرضا، وأطفأ بقاياها بقدمه..

- ويا سيدي هي طفيناها، هدي بالك هلقيت؟ خف الدخان؟ ضحك صاحبه..

ـ وإيش جاي تسوي هان؟ تمسك العلم وتتفرج؟
ـ مسكة العلم مش هينة، كبار وخايفين يمسكوا العلم، لسا صراحة جبنان أقرب، بس حابب أشوف.. وإنت؟
ـ ما بعرف ليش انا هون..
ـ كثير ما بعرفوا ليش هم هون..

جلس إلى الأرض، وأمد قدمه اليمنى وقد ثنى يسراه، فيما كانت الساحة أمامه تمتلئ بالدخان وتقل وضوحاً وتزداد ضجيجاً..

أعاد ناظريه إلى الشاب والفتاة ما وراء الحائط ،» لسا الإسعاف ما إجاش؟! ما هو يا بموت من الجرح يا بموت من شفايفها».

ـ خليه يلتهي، عشان ما يحسش بالوجع، وخليك بحالك انت شو مغلبك؟! ما هو لو إنت انتصاوبت ومحله كان..

ـ إذا بعرف إني بدي أكون بمحله هلا بروح بتصاوب، بس حظي وعارفه، بتصاوب من هون بلاقيني بمستشفى رام الله في العناية المركزة إذا ما لقيتش حالي كاعد بتعذب..

والحرب.. هي أشبه من يوم القيامة بالقيامة، وإن لم يكن الناس عراة إلا أن قلوبهم تعرت، وإلا لما كانوا ها هنا،

الجند تعروا من الرحمة، والشبان تعروا من الخوف، وبعض العري شرف..

الساحة التي تتحول في كل ثانية إلى لعبة جديدة، مطاردة، نزال، أو حتى لعبة بينج بونج، من يوقع أكثر يكن الفائز، لكن الإيقاع يختلف في كل مرحلة، وإيقاع دقة سنسال علق بقدم فتاة قفزت ورمت حجرا واحتضنتها الأرض، أقوى من دقة إيقاع جندي رمى قنبلة وعاد إلى الخلف هرعا..

وكادت أن تختنق لولا أن رأى برهان ربه ورآها، والتفت إلى صاحبه وهو يحاوره، وأومأ إليه فرمى سيجارة كاد أن يشعلها، وأشعل في نفسه الحمية وهبا إليها..

وبعد أن سحباها بعيداً عن الدخان وأهله

- إجرها متصاوبة، لازم نوقف الدم.. جيب شريطة أو أي إشي..

- شريطة لتغطي الدم، بس بتوقفوش، بدك إشي يضغط عإجرها.. سنسالك..

- سنسالي؟

- الإشي الي لابسه..

- اه اه..

وخلع من على صدره سنسالا كان يرقد ها هناك من ست سنوات، ولفه أعلى الجرح فقل تسرب الدم من مرقده، ولف على الجرح قطعة قماش قد قصها على عجل من قميص كان قد رمي جانباً، ثم أعاد ناظريه إلى صاحبه..

- روح نادي واحد من الإسعاف، هيهم قراب من الدوار.. وأنا بضل عندها..

كان قد أكمل سماع شطر الجملة الأخير وهو يركض راداً عليه « ولا يهمك، بس شد على الجرح».

أعاد ناظريه إليها، وقد التقط من حقيبته قنينة ماء صب منها قليلاً على يده ثم مسح على أعلا جبينها وعينيها..

- سامعتيني؟! صحصحي..

ضارباً على خدها بسرعة مخاطباً إياها، « قومي، إنت منيحة، صحصحي».

متفقدا الجرح بعيني طبيب، وإذ رأى الدم قد توقف عن سريانه أعاد ناظريه إلى عينيها بالا" قطعة قماش مسح بها عنقها، ثم أمد يده إلى يدها ليتفقدها، فشنت بيدها على أطراف أصابعه، وإذ ألقى ذاك الأمر إحساساً غريباً في خاطره و طمأنه عليها..

ثم عاد صاحبه ورجلان أحدهما كان مسعفاً والتقطاها وأسرعا بها إلى سيارة الإسعاف..

- بدي واحد يضل معها، سيارة الإسعاف بتوسعش لو سمحتوا.

« روح معها وبلاقيكم بالمستشفى..» مربتا على كتف صاحبه..

وظل، طيلة الطريق، ممسكا بيدها يستجدي منها الأمر مرة أخرى، لم يكن يدري أكان ذلك من أجلها أم من أجله، لكنها لم تفعل..

***

« مين معاذ ؟» صرخ رجلٌ قد تأبطت عيناه شرا، بجسمه العريض وقد احتاج معاذ إلى أن يرفع راسه كثيراً بعدما كان قد أسنده على يده اليسرى، « انا معاذ، إيش في ؟»

وقد شد على قميصه بيده اليسرى، « من وين بتعرف بنتي؟ وليش ماخدها على المواجهات؟»

لم تتغير ملامحه بتاتا، محاولاً نزع يد الرجل عن قميصه،

ـ وكّل الله، ادعي إنها تقوم بالسلامة بالأول.

ـ والله إذا بصير فيها إشي..

محاولً تهدئة رجفات يديه، غير مصغٍ لتمتمات الرجل حيناً وصراخه حينا أخرى، ألقى برأسه على الحائط واغمض عينيه وقد شبك يديه الاثنتين ، محاولاً ترتيب كل ما حدث..

« ما هو وقتها أصلاً؟! يا بموت من الجرح يا بموت من شفايفها، وإنت جاي تمسك العلم هان؟ هي رميت السيجارة ارتحت هلأ؟ .. شد إنت على الجرح بس .. أنت منيحة، صحصحي.. بنا بس واحد يضل معها».

صحى من هلوساته فجأة وقد فتح عينيه والتقط من حقيبته قارورة ماء، تجرع قليلاً منها، أغلقها، أعادها إلى مرقدها.. وعاد هو..

مستذكراً تلك اللحظة التي شدت بيدها على أطراف أصابعه، وكأنها أعطته شهيقاً وقتها، شهيق الحياة..

أعاده إلى الحياة صوت أحد الممرضيين صارخاً «مليون مرة قلنا، ممنوع التدخين جوة المستشفى».

تلفَّت إليه و هو يطفئ طرف سيجارته التي كانت قد أشعلت للتو معيداً إياها إلى علبة السجائر، ماشياً ببطء و هو يعيد حشو بنطاله بالقميص..

« كيف صارت؟» بعدما ثنى ركبتيه إلى أن تساوى وجهه مع وجهه صاحبه المتكئ جانباً..

- ما بعرف، بس قلبها ما كان يدق بالإسعاف، ما كنتش تتنفس..

- رح تكون بخير..

ملتفتاً إلى الصوت الصارخ من الوراء..

- ماله هاد ؟

- أبوها، بفكر إني بعرفها وإني أنا الي ماخدها على المواجهات.

متحسساً بيده اليمنى أطراف أصابع يده اليسرى سائلاً صاحبه « رح تعيش؟!»

***

قال لي بعد أن تبسم وقد تجرع بواقي سيجارته، وكانت تلك القصة أول ما ستنبى عليه حياتي التالية.

«لازم تكون قوي قد ما بتقدر، في حياتك انصدمت بمليون جدار، مش رح أقبل إن جدار يهدك بعد اثنين وعشرين سنة عشتهم أنا».

«وهيك التقينا» ضاحكاً وقد أدار وجهه إلي، ثم أداره لفترة قبل أن سألت:- «والبنت ؟»

وقد نفث بواقي الدخان من فمه..

- ما بنعرف إيش صار فيها وقتها، اضطرينا ننهزم وأبوها مفكرنا إحنا الي ماخذينها على المواجهات.

- ما عرفت إن عاشت أو ماتت؟

- عرفت وقتها إن في بنت ماتت يومها.. ما كنتش أعرف إن كانت هي أو لا.

- كانت حلوة؟

- مش متذكر - ثم ضحك - الخوف وقتها ما خلاني أشوف إشي..

- وبعدها؟!

***

2016/4/8

كانت القاعة قد جهزت لما سيحدث، ثمان من المجموعات تتنافس في مسابقة ما، الخوف دب في كل الجمع، أما هو فقد كان متأنقاً رغم إدراكه بأن اثنتين من المشاركات في فريقه لم تأتين حتى الآن، والمسابقة ستبدأ بعد نصف ساعة..

أعاد التقاط هاتفه مرةً أخرى، وضع رقم إحداهن واتصّل عليه، لكن أحداً لم يجب، أعاد المحاولة مرة أخرى، أخذ شهيقاً قبل أن يعيد فعلته على رقم أخراهن.. وكفعل الأولى فعلت، أغمض عينيه، فتحهما ثم قال موجها الحديث لياسمين:

- رح نشارك بالمسابقة لحالنا.. مش رح يجين..
- معاذ بس لسا مش متدربين.
- معنا نص ساعة.. دول بتتحرر بنص ساعة..

وظلا لما يزيد عن ساعة ونصف، يحاولان التدرب على عرض فكرتهما بأفضل طريقة كان يمكن أن يصلا إليها، قبل أن يأتي دورهما إذ حلّا سادساً بين الفرق، وكان كلما تعرق تبسم قليلاً وأخذ نفساً، وأعاد تكرار مقولته « رح

نكسر الدنيا»..

وقد كانا واثقين جداً وهما يعرضان فكرتهما أمام لجنة الحكم رغم تأتأتهما المتكررة ووقوعهما بالخطأ مرات عديدة.. إلا أنه كان يبدو على وجوه اللجنة عدم الموافقة على مشروعهما قبل أن تغلق الباب، وتنادي على المجموعة التالية..

***

على أربع درجاتٍ وضعن أمام القاعة تلك كان قد جلس، واضعاً رأسه على كفه الأيسر المستند على قدمه، وقد وضع علبة عصير كان قد شرب منها القليل جانباً، كان ولأول مرة منذ فترة ليست بالقصيرة يشعر بالخذلان، كيف لا وقد أعدَّ نفسه للمسابقة هذه منذ فترة، غير أن غياب الاثنتين أردى في نفسه الريبة والشك عما إذا كان سَيُختارُ للمنافسة التالية..

رفع رأسه -وقد وضع أحدهم يده على كتفه- حتى اتضحت معالم ذلك الشخص، كان هو ..

- كيفك؟

- تمام الحمد لله، كيفك انت؟

- بخير.. إيش جاي تعمل هون؟

- زي ما جاي تعمل انت.. كيف كان أداؤكم؟
- ما بعرف، كان منيح ..
- يالله مش ناوي تيجي تسمع النتيجة؟
- صراحة خايف.. مش ضروري.

وقد شده من يده جاعلاً إياه يقوم من مجلسه ذاك مخاطبا
« لازم تكون زلمة حتى إن خسرت » .

***

في أحد مقاهي رام الله، وبعد أن صُدِمَ الاثنان بخسارتهما قد جلسا برفقة اثنين أخرين من المشاركين.. وبعد هنيهة سأله:

- عرفت إشي عن البنت؟

هازاً رأسه بالنفي بعدما وضع كأس شايه جانباً
- تخافش، رح تكون بخير أنا متأكد..

وقد التقط سيجارة من علبته، ووضعها في فمه وقام بإشعالها ثم أعاد ناظريه وسأل:

- وإنت، شو أخبارك؟ سمعت إنك رح تنشر روايتك عن قريب..
- كان المفروض أنشرها عن قريب.. بس كل مرة

بتاجل إشي وبخرب إشي

- يالله إن شاء الله خير.. بس رح تعمل ضجة حلوة..

- سمعت إنك بتلعب شطرنج منيح..

- مش كثير منيح.. بس أحسن منك..

وضحك قبل أن يكمل:

- طيب شو عليك بكرة؟ أشوفك وأغلبك؟

**

فارا' من أحد محاضراته كان حينما التقى به في كافتيريا للجامعة..

- يالله؟جبت الشطرنج تعال أغلبك

- إيش تشرب؟

- أي إشي غير القهوة..

وكانت تلك ثاني منافسة بينهما..

احتاجا أسبوعاً واحداً فقط ليكتشفا كل تلك الأشياء التي كانت تجمعهما، كل تلك التفاصيل الصغيرة. الغريب في الأمر، أننا عندما نعجب بأحدهم ويصبح صديقاً لنا، فإننا نبحث عن التشابهات ونعجب بالاختلافات بيننا. عندما يقرر تركنا أو نقرر تركه، فأننا نبدأ بالبحث عن الاختلافات، ونكره كل شيء متشابه بيننا..

أما هما، فلم تكن الاختلافات جوهرية بينهما، كانا عبارة عن قطعتين «ليجو» فيهما من الاختلاف ما يجعلهما تنطبقان على بعضهما تماماً، صفة الهدوء في أحدهما والضجيج الذي يملأ الآخر، القوة في ذراع أحدهما وضعف عود الآخر، المزاح والجدية، السواد والشقار.. والذكاء بكليهما..

لم يحتاجا للتمرن أو للوقت للتناسق، كان كل شيء متناسقاً..

وفي الوقت الذي لم يكن أحدهما يمضي مع عائلته أكثر من ثلاث ساعاتٍ يومياً، كانا يمضيان مع بعضهما أكثر من نصف النهار..

لم يكونا بحاجة لفعل شيءٍ أو الاتفاق على شيءٍ ليلتقيا، بل على العكس تماماً، كانا يجلسان ولا يفعلان شيئاً.

***

وكان متكئاً حينما وصلت إليه رسالة ما من أحدهن:

ـ مساء الخير كيفك؟

ـ تمام الحمد لله، كيفك انت؟

ـ الحمد لله، كنت بدي أسألك.. سمعت إنّ في عمل تطوعي لتنضيف حديقة مع الجامعة، وحكتلي صحبيتي إنك رح تشارك.. وحابة اشارك وما بعرف حدا من المشاركين غيرك وما بعرف وين المكان.. فممكن أروح معك؟

ـ ما في مشكلة.. بنفع نلتقي بمكان قريب؟ عندي ورشة عمل بمكان هناك.. نلتقي كدام المقاطعة وبنروح سوا؟

..عند الإشارة الضوئية..

ـ اتفقنا.

2016/5/1

أمام إشارة المرور بجانب محل العصائر مقابل «مقاطعة رام الله»، كان صديقان بكل ما أوتيا من حبٍ لبعضهما يجلسان، أحدهما قد وضع سيجارة في فمه واستنشق ما استطاع من دخانها، أما الأخر فقد استند إلى حائط صغير، وقد أعاد النظر إلى هاتفه مراراً وتكراراً..

- النا نص ساعة بنستنا معاذ، مش ناوية تشرف؟
- اصبر شوي، هلقيت بتيجي..
- معاذ تعال نروح وهي بتلحقنا..

ولم يكد يكمل الجملة تلك، إلا قد قاطعته نظارة رؤية وضعت أمام عينين فاتنتين لامرأةٍ كادت الإشارة الضوئية أن تقف لجمالها، وكاد الوقت أن يقع مغشياً عليه من فتنتها..

أمام خط المشاة كانت.. منهكةً تستجدي محركات السيارات أن تقف، حتى أسرعت بخطواتها فارةً من خوفها منها.. وحينما وصلت:

- المرة الجاي بشرف واحد منكم بمسك بإيدي لأقطع الطريق..

ـ منبح الي استتنينا (قال بنال ضاحكا).

فتاة جميلة وشارع وإشارة مرور، نلك يعني حوادث كثيرة لاحقا..

أكان ذلك صدفة؟ أم قدراً محتم أن يلتقي ثلاثة ما كان أحدهم قادراً على جمعهم لو أراد ذلك، والريح التائهة تجمع البذور..

من عائلة مسيحية عاشت لبرهة من الزمن في بلدة الطيبة شمال شرقي رام الله كان الجد الأكبر «حليس» يعيش وقتها، وقد أنجب عدداً من الأبناء غير أن اثنين منهم قد تنازعا وتخاصما كابني ادم، واعتدى احدهما على أخيه فقتله وهرع فزعاً بفعلته، ومن هناك فر.. باحثاً عن مأوى يأويه من بطش السماء وبطش أخوته الذين قرروا الثأر لأخيهم من أخيهم، وشاءت الأقدار أن يفر إلى بلدة تسمى سنجل..

سنجل التي عرفت بمعركة شيلو بين بني اسرانيل والفلسطينين التي ذكر أثرها في التوراة، كانت وقت إذ معقلاً لقاطعي الطرق الذين عرفوا بسطوتهم وبطشهم، إلا أن رحمةً ليس يعرف مصدرها دبت على قلوبهم حينما التجأ إليها الابن الفار، واثر أهل سنجل وقتها على نفسهم وتوعدوا بحمايته..

وقتها، كان الابن المسيحي الفار قد أعلن إسلامه طلباً للحماية وخوفاً من بطش أهل سنجل الذين كانوا مسلمي

الاسم، وعاش هناك وقد تزوج وانجب، منشئاً عائلة ظلت راسخة في المكان سميت فيما بعد بتمستمة..

سنجل التي اشتهرت وقتئذ بمحاصيل العنب والزيتون، وأشجار التين والبرقوق، وتطورت الأمور رويداً رويداً إلى أن ضمر الاهتمام بالمحاصيل وقطاعة الطريق..

والأب الأكبر للعائلة -الابن الفار- قد أنجب.. وبعد عدة أجيال جاء سليمان، واعتنق الدين وأصبح إمام المسجد ومؤذنه، وتتالا النسب إلى أن جاء الابن البكر للابن الثالث في العائلة وأسموه معاذ..

العائلة التي تكونت وقتئذ من أب يعمل في مدرسة داخلية في القدس، وقد اصطحب ابنه الأكبر للدراسة هناك، تلاه الابن الثاني الذي عمل لفترة طويلة في أعمال متقطعة. أما الابن الثالث - الذي سيصبح أبا معاذ لاحقاً - فقد كان الابن الاقرب للأم، إذ كان يعينها في أمور البيت في وقت غياب الابنين الأكبرين.. يتلوهم الرابع الذي كان أكثرهم كسلاً وأقلهم تنظيماً، الابن الذي كان كلما اصطحب أغنام العائلة ليرعاها توجه بها إلى ملعبٍ قريبٍ وتركها راكضاً وراء كرةٍ ناسياً أغنامه .. الابن الأخير كان أكثرهم هدوءاً وقتها..

وفي الوقت الذي تطورت فيه أحداث السابع والثمانين، هبّ الأكبران مع أصغرهما ليلتحقا بمواكب الثوار، الأكبر كان قد التحق بتنظيم ما، الثاني كان قد أنشأ تنظيما صغيراً في البلدة، أما الأصغر -الأكثر هدوءاً- فكان منفرداً يقف في منتصف الشارع الرئيسي رامياً الحجارة على سيارات المستوطنين المارة من ذلك الطريق. في فترة لاحقة بعد توقيع اتفاقيات السلام أصبح لا يفرق بين سيارات المستوطنين أو الفلسطينيين، أصبح يرميهم جميعا بالحجارة.

وفي الوقت الذي كان أكسلهم لا زالت تلهيه كرةٌ يركلها عن الأغنام وعن الثورة..كان الابن الثالث يتعايش مع الواقع المفروض دون أن يكون جزءاً منه.. وفي وقت اشتعال كل شيء كان قد ضرب من طرفي النزاع..

في أحد الأيام، كان أخوه الأكبر يغلق عليه الباب ويبدأ بضربه.. لمرات كثيرة فعل لعدم التحاقه بمواكب الثوار..

في أيام أخرى، أستدعاه الضابط الإسرائيلي المسؤول عن المنطقة محاولاً كسب وده للإيقاع بإخوته، وكان رده وقتها « صح ما بقاومش معهم، بس قلبي معهم على القليلة»..

وقد تزوج، بابنة عمته وكانت اختيارِه..

ابنة عمته.. الشقيقة الصغري لشق توأمٍ لعائلةٍ توفي الوالد فيها وهي لم تكد تبلغ السبعة أعوام من مرض السرطان، ولم يكن له علاجٌ أو محاولة علاجٍ وقتها.. كبرت، وحصلت على درجةٍ متفوقةٍ في الثانوية العامة، لكنها لم تتعلم لظروف العائلة وقتها.. كبرت وتزوجت، وأنجبت معاذ في بادئ الأمر..

معاذ الذي أحيط بأبٍ وأمٍ دون انتماء سياسيٍ إذ قرّرا أن تربية المولود الجديد أسمى من اعتناق فكرٍ قد يردي بهما في غياهب سجون المحتل، وتنشئة طفلٍ من تنشئة الدولة..

معاذ الذي أُتبِع بشقيقةٍ بعيد عامين وأخرى أتت متأخرةً بعد تسعة أعوامٍ عنه، وقد عانا -رغم وجود شقيقاته- من الوحدة..

لم يكن هو من اختار اسمه ولا اسم أبيه، ولكنه اختار أن يلصقهما معا بعد مدة، لم يختر أن يولد في قريةٍ بدأت للتو مرحلة المراهقة بعيدا عن أزقة المدينة، ولو كان اختياره لاختار أن يولد بجانب البحر، -و سيكون الله راضياً عليه جداً- لو ولد على زورقٍ من أبٍ بحار وأمٍ تبيع الأسماك

في الشارع،لا لشيء ولكن لكي يملكه إلى تلك الدرجة التي تجعله يمله ويرفضه، لا أن يعيش بعيداً عنه يحرم منه فيزيد تعلقه به.

أوليس التعلق بالأشياء هي أكبر جريمة نرتكبها بحق أنفسنا وبحق الأشياء، والتعلق فوضوي تماماً، أن تتعلق بشيء لا تملكه أرحم من أن تتعلق بشيء هو لك.

وخسران الشيء بعد امتلاكه أقسى من عدم امتلاكه بتاتاً..

تعلق بشجرة التوت وغرفته الصغيرة في بيت جده إلى سن الخامسة، ثم ما كان إلا أن أبتلع بيتهم الجديد بغرفه الثلاثة والحمامين ذكريات السنوات الخمس الفائتة.

والبقايا، بقايا البيت والعطر والذاكرة.. هي من توجعنا وترجعنا إلى ما كان يمكن أن لا نفقده أبداً..

لذا أرجوكم.. احرصوا أن تكون هداياكم لمن تحبون شيئاً من قبيل الزخارف، الأواني الزجاجية، الرسائل، الورق.. أشياء قابلة للحرق والانكسار في لحظة غضب لينتهي مصيرها إلى أبد الأبدين.. توقفوا عن إهداء أشياء تبقى عالقة للأبد، سنسال، دعابة، ضحكة، موسيقى، أغنية، قبلة.. والأهم.. ابتعدوا عن إهداء الذكريات..

والبحر.. لغته، شظاياه، وانكسار قلبه لنصفين، زورق وشراع هو كل ما كان يبغي.. أكان كثيراً عليه ذلك؟

لم يطلب من والديه السفر إلى بحرٍ لينجبانه هناك ولكن.. كان يفكر مراراً ألم يكن بإمكانهما التريث ولو قليلاً إلى ألفِ عامٍ أخرى يذوب فيها ثلج القطبين كاملاً ويغرق الأرض بالماء، لتصبح الأرض بحراً ثم ينجبانه أينما شاءت زوارقهم..

او لو لم يبقى في أصله دون تغيير في المادة، ماذا لو بقي مجرد ماء، قطرة فقطرة، دون ذلك التكوين الإلهي ليصبح على ما هو على شاكلته الآن.. إنسان بلا حيلة، واحتمالية إصابته بمرضٍ عضالٍ يقتله أكبر من احتمالية أن يكون سعيدا يوما كاملا ؟! ماذا لو خلق في الأصل حبة مطر، حرة، نقية، تتلوث، ثم تعود إلى ما كانت عليه، دون أن تضطر إلى التريث والبقاء في سبات والتفكر كثيراً في كل ما حدث وما لم يحدث..

كبر، وازدادت فقاعات الحياة معه، كلما كان ينتقل من مرحلة تنبت إحداها وتنفجر في الوقت الذي يكون فيه أقل ما يكون جاهزية لانفجارها..

في السنة الأولى له في رياض الأطفال، ظلَّ لفترةٍ طويلةٍ جداً غير قادر على التأقلم مع أحدهم، وقد اعتاد الجلوس في المقاعد الأخيرة غير مبال. إلا بالساعة التي اعتلت الحائط راجياً إياها كل يوم أن تصل الثانية عشر ليهرب إلى حضن أمه..

ظلَّ الأمر فترة طويلة جدا، إلى أن استطاعت إحداهن أن تغافله أثناء جلوسه على الأرجوحة وقامت بهزه مرارا وتكرارا دون مقدرة منه على النزول، وبعد يومين، جلس ولأول مرةٍ مع إحداهن وقد ناصفته شطيرتها المصنوعةَ من الحلوى وقد منعته إياها أمه لتلف أسنانه وقتها..

وعاد إلى البيت يومها وكأنّ الحياة دبَّت فيه قبل دقائق ولأول مرة رأت أمه الحماس في عينيه صباح اليوم التالي وهو يتحضر للذهاب لرياض الأطفال..

واستمر ذلك الأمر ما يزيد عن عشرين يوماً قبل أن يحلَّ الصيف وتأتي العطلة.. وقتها، كان قد قُرِّرَ أن يعيد معاذ رياضه بسبب ضعفه في القراءة..

وقتها، لم يعِ الأمر جيداً وانتظر طيلة الصيف انتهاءه ليعود إلى رياضه من جديد، لكن آماله خُيِّبَت في اليوم الأول حينما أدرك أن رفيقته القديمة لم تعد في رياض

الأطفال بعد الآن..

في السنوات المدرسية الست الأولى من حياته، كان قد عانا من خجله الشديد وتأتأته في بعض الحروف.. الأمر الذي زال في الصف السادس حينما قرر لأول مرةٍ أن يشارك في مسابقةٍ للخطابة كانت قد أعدَّت لطلبة المدارس وقتها..

لكن التحول الكبير في حياته بدأ حينما انتقل من المدرسة إلى الجامعة ومن المحيط المغلق إلى الساحة المفتوحة، ذلك ما جعل حياته تأخذ منحنى آخر..

لم يكن مثقفاً أو ذكياً أكثر من اللازم، إلا أنه كان مختلفاً وكانت تلك المصيبة..

لسانه الذي لم يكف يوماً عن قذف ألسنة النار على المجتمع، الأفراد وعلى السلطات جعلته محط أنظار الكثيرين ..

قبيل انتخابات جامعته الأولى، وبعد أن كان قد لذع الفصائل المشاركة كلها، حقد أحدهم عليه وقد تعرض لتهديدات كثيرة، نفذت منها إحداهما حينما ضرب من مجوعة من الشبان في ساعةٍ متأخرة في أحد شوارع رام الله..

انتقاداته غير المدروسة للسلطات جعلته صيداً.. ومرافقته مجموعة من الطلبة أثناء نزلوهم إلى أحد نقاط التماس كاشفاً الغطاء عن وجهه جعل منه فريسة سهلة..

زادت الأمر سوءاً صداقته العميقة مع أحد الناشطين في أحد التنظيمات السياسية المعارضة للسلطات إذ اتضح انه ذو مكانة عالية في التنظيم وقد حاولوا اعتقاله لمراتٍ كثيرة قبل أن يلقي الجند القبض عليه من باب بيته.. اعتقال صديقه جعل الشكوك تكبر باحتمالية شراكته في التنظيم ذاك..

أما كتاباته التي لم تكف عن الانتقادات الكثيرة فكانت ما جعله في منظار قناص قد يطلق عليه النار في أية لحظة..

في السنة الثانية، وبعد أن كان قد انتقد أحد مناظري الكتل الطلابية مستهزءاً به، أعِدّت له العدة.. لكن وقوف مجموعة من الشبان إلى جانبه حال دون الكيل به..

ثم ماذا؟ ثم بعد كثير من الانتقادات، الشكوك والتهديدات.. أصبح هادءاً وترك الأشياء جميعها.. هدوءه ذاك لم يجعل الأنظار تكف عنه، بل زادت خوفاً من هدوءه..

أما الآن فيجلس بجانب علي ونهاوند..

***

أما نهاوند فقصتها مختلفة جدا..

الجد الأكبر الذي عاش في عين الزيتون، إحدى القرى التابعة لصفد، وتبعد عنها ميلاً واحداً، و بعد أن بلغت الأخبار أهل القرية أن عصابات الهغانا، وبعد أن تسلمت من البريطانيين معسكري روشبينا وفيلون وقد قامت بتأمين طريق يصل ما بين الحي اليهودي وبلدة عين الزيتون. وبدأ الجند والأسلحة بالتدفق من هناك.. قرر الجد الأكبر الفرار من القرية مع عائلته حفاظا على أرواحهم ريثما تهدأ الأوضاع ويعودون.. ورغم محاولاته الكثيرة في إقناع ولده الأصغر بالفرار معهم، إلا أنه عاند كثيراً، وبقي هناك ليلقى حتفه مع الذين لقوا حتفهم..

الجد الأكبر لقي حتفه هو الآخر من مشقة سفرهم، ودفنت جثته في مكان ما بعيداً عن القرية، وترك العوائل التي تلته دون أحد يقرر عنهم، الأمر الذي أردى بهم مشتتين على أربع أبناء.. اثنان منهما مع عائلاتهما هاجرا شمالاً مع الجماعات التي قررت أن لبنان هو الخيار الأفضل في ذلك الوقت، واحد ضل الطريق مع زوجته، ولم يسمع عنه خبر من وقتئذ، وواحد قرر أن البقاء مشردا في هذه

البلاد خير، وأن التشرد في الوطن ليس تشرداً، وظل لفترة ليست بالقصيرة يتردد بين الأماكن حتى أن استقرت إحدى عوائل السلالات في مدينة البيرة..

وكان صالح «الأول» صالحاً جداً وطيب القلب أكثر من اللازم، فبعد أن ورث أراض وبيت كان لوالده الذي قد توفي في صغره، كد واجتهد وقد نمت تجارته شيئاً فشيئاً، في الثالثة والعشرين تزوج من فاطمة التي أنجبت ابنة وحيدة اسميت سارة، ولما جاءت لتنجب أخوها بعد عامين وقعت أرضاً، ومات الجنين ومات رحم فاطمة ولم تنجب بعد ذلك..

وكانت سارة، الطفلة المدللة لأبيها، الذي رغم الغصة في قلبه -لعدم إنجاب ذكر يحمل اسم العائلة- أحبها كما لم يحب أحداً..

وكان عمرها خمس سنوات لما أتى عمر إلى البيت، الذي خُيِّلَ وقتئذ ملاكاً بعثه الله لصالح جزاءً على صلاحه. ففي ليل خريفي، ولما سمعت فاطمة باب البيت يدق اتجهت إليه وفتحته، ولم يكن هناك أحدٌ على الباب إلا طفلٌ قد لفّ بغطاءٍ أبيض..

وصرخت فاطمة فلبى صالح صراخها، ولما رآه ضمه إلى حضنه وخرج به ملق. بناظريه باحثا عمن وضعه..

وحار فيه، وكان رضيعا ً على ما يبدو أنه لم يتجاوز الأسبوع منذ ولادته، وكان هزيلا ً.. لكن صالح أطيب من أن يلقي به جانبا ً، وقد رآه طفلا ً أرسله الرب له..

وقتها.. سارع صالح إلى أقرب مشفى سائلا ً عن إجراءات تسجيل المولود الجديد، متحججا ً بأن امرأته قد تعبت يومها، وأنجبت داية الحي عمر..

وسجل على اسمه، وقد تقبله كل من في البيت إلا سارة، تلك التي حاولت مرارا ً وتكرارا ً قتله.. لكن والديها كانا يحميانه دائما ويؤنبانها « هاد زي أخوك يا سارة»..

« هاد لقيط» ظلت لسنوات سارة تردد الأمر.. لكن صالح الذي كان يشفق على الطفل -ابنه الآن- كان يردد « هاد أخوكي، وبعد ما أتوفى رح يورثني زي ما راح تورثيني».

وكبر الطفل وبان شقاره وكبر صالح كثيرا ً وهزل وضعفت تجارته وباع أراضيه كلها ومات حزنا على زوجته التي قد سبقته ..

وكان ما حدث، أن ورث عمر البيت المتبقي كاملاً،
وألقيت سارة فارغة اليد في بيت زوجها بعد أن زوّر
عمر أوراقاً تثبت تسجيل والده للبيت باسمه..
وحاولت سارة إنكار الامر مراراً «هاد لقيط، مش
أخوي»..
لقد كان بيتا كبيراً.. لكنه لم يكن ليتسع لعائلتين معاً..

وأنجبت سارة صالح، الأخ الاكبر إلى جانب ذكرين
آخرين وأنثى .. ولما أن جاءها الموت روت قصة البيت
تلك لحفيدتها نهاوند.. «لازم نرجع البيت يا ستي، هاد
مش بس بيت.. هاد وطن».

أما صالح.. ففي بادئ عمره كان ثورياً جداً. في
الثانية عشر من العمر ألقى أول حجر على سيارة مجندة
مرت من جانب بيتهم، في الثالثة عشر سجن لعدة أيام
على أمور مشابهة ، في الخامسة عشر انضم إلى أحد
الفصائل المسلحة في ذلك الوقت بعد أن استطاع بطريقة
ما الحصول على بندقية تعود للحكم العثماني، ومسدس
اشتراه بعد أن باع قطعة ذهب لأمه دون أن تعرف..
وظنت أنها أضاعتها وقتها.. في السابعة عشر من العمر
كان من الأسماء المطلوبة لإمساكه زمام الأمور في

الفصيل ذاك.. في العشرين من عمره اعتقل، وكان ذلك بداية التغيير الجذري له..

في الرابعة والعشرين من عمره خرج من سجنه بصفقة تبادل أسرى تمت ما بين السلطة وبين الكيان الإسرائيلي، وقتها ليخرج صالح ويصبح ضابطا عسكريا في أحد اجهزة السلطة..

لقد ذاق في سنوات سجنه ما لم يذقه أي سجين آخر، وذلك لعلاقاته الكبيرة في الحزب وأعماله التي طالت مراكز حساسة للأجهزة الأسرائيلية..

ولما خرج من سجنه وأصبح ضابطاً، ثم مديراً لأحد مراكز الأجهزة في رام الله، ذاق من وقع تحت يديه من أبناء شعبه ما لم يذقه من وقع تحت يد ضابط آخر، لقد كانت تحقيقاته كمن يحقق معه الشيطان نفسه..

كثيرون هم الذين جلدوا تحت ساعديه، كثيرون من بكوا دماً، وكثيرون من أصيبوا بإصابات بالغة.. وكانت مهمته دوماً - ذلك الذي ظل يقارع الكيان اليهودي لفترة ليست بالقليلة- وقف أي أنشطةٍ توجه ضد الكيان الاسرائيلي..

لم يشكك أحدٌ في وطنيته، لكن ما معنى أن تقارع أحدهم يوماً، وأن تصفع من يحاول مقارعته في يومٍ آخر؟!إكان

أمره منهما كثيراً..

وكان قد كوّن عائلة وقتها مع أم معلمة في أحد مدارس الغوث، وقد أنجبا أربعاً من الإخوة، أولهما ذكرٌ والباقي إناث..

وكانت نهاوند الأنثى الثانية.. وقد عانت والدتها أثناء إنجابها من عسر الولادة. قال الأطباء وقتها أن الحبل السري قد لف على رقبتها مقللاً حركة الدم باتجاه رأسها، وكان شيئاً من الجنون أن يقول طبيبٌ ما أنها حاولت الانتحار قبل أن تأتي، وقالوا أنهم أنقذوها من الموت المحقق وقتها، هم ظنوا أنهم فعلوا..

وولدت نهاوند أخيراً، و قد تعلقت بعمها الأصغر الذي اعتاد السفر والعودة إليها محملاً بالحب والحقائب التي امتلأت بالدمى لها، كانت الدمى بالنسبة لها هاجساً وولعاً..

وكان يبدو عليها ملامح الذكاء منذ أن استطاعت إتقان الحديث قبل أن تبلغ العام، وفي الوقت الذي كان فيه الأطفال لا زالوا يشاهدون الدمى المتحركة، كانت وقد بلغت من العمر السابعة قد أدمنت مشاهدة الأفلام ومحطات الأخبار، في الثامنة شرحت لولادتها كيف قتل

الجند طفلين دون حراك منهما وطالبتها بالتحرك لاجتيهم.
لا عجب أنها تدرس القانون الآن..

إلا أن السبب الرئيسي الذي جعلها تدرس القانون كان أباها، أيدرس أحدهم القانون ليحاكم والده يوماً ما على تصرفاته في صغره؟!

في العاشرة من العمر حينما مدت يده عليها، وأنهكها ضرباً على أمر لم تعد تتذكره الآن، لكنها تذكر رجفات يديها واختباءها في زاوية للغرفة تبكي أكثر من ساعة..

في الخامسة عشر، حينما فقد والدها مبلغاً من المال، وكان ابنه من أخذ ذلك المال، وألقى عليها التهمة، وقبل أن تنطق بأي حرف ضربها، وصمتت.. صمتت ذلك اليوم، ولم تنطق بحرف يردع عنها الضربات، ظلت صامتة.. طويلاً.. حتى اليوم..

في السابعة عشر من العمر، كان الأمر قد حسم، ستكون لباهي- الذي يكبرها بأربع سنوات - زوجة فيما بعد، الابن المدلل لصديق والدها وصاحب الشركة التي قد أسسها قبل عدة سنوات، ودون أن تعطي أي موافقة تم الأمر خطابياً..

ومن وقتها بدأ يتردد على البيت مراراً وتكراراً، يسأل عن أحوالها، يأخذها في جولات معه، يدرسها، يهاتفها .. هكذا حتى اعتادت الأمر وأصبح غير قابل للنقاش..

الغريب في الأمر، أن الابنة الرافضة لعمل أبيها في أحد أجهزة السلطة كانت قد خطبت لباهي الذي يعمل في الجهاز نفسه، لم يكن الأمر زواجاً أكثر من ما كان تبادل مصالح..

والابنة الثائرة -على ما كان يبدو- على السلطة وقتها، تبقى - في نهاية الأمر- ابنة رجل في السلطة.

فكرت في الأمر مراراً وتكراراً، كيف لها أن تثور على سلطة أبيها الآن وهي في نهاية الأسبوع تأخذ مصروفاً منه، كانت تحتاج إلى الاستقلال الذاتي قبل الثورة وقبل التحرر، في الواقع، كثيرون من يحتاجون إلى الاستقلال الذاتي قبل التحرر.. ربما لم تكن تتأقلم عم الوضع القائم، ربما كانت تؤسس نفسها لمرحلة أخرى، ربما الاعترافات الكثيرة في وقتها كان مفروضاً عليهان ربما لم تكن ترضخ وإنما كانت تحاول كسب الوقت إلى أن يشتد عودها، لكن في نهاية الأمر..تبقى ابنة سلطة.

العائلتان اتفقتا أنهما سيتزوجان بعد هنيهة، عندما تبلغ هي التاسعة عشر، سيكون هو قد أسس عمله وسيتم الأمر..

نهاوند.. الفتاة الرمادية، التي تنعزل على نفسها كل فترة، تتقوقع إلى الحد الذي تتداخل فيه أقدامها مع عنقها.. حتى قد تتسع لها علبة كبريت..

إنها تتجه إلى الظلام تلقائياً، لقد خلقت في سابق الأمر خفاشاً..

صامتة كجسر معلق يكاد يسقط، ويدوسه المارة ولا يعودون إليه أبداً، ويقضي معظم وقته وحيداً، كشارع يوصل الجميع إلى بيوتهم ويبقى هو خارجاً كانت هي..

لا أحد يعرف ذلك السر الذي تخفيه، ولا أحد يشعر بالخوف الذي يدب فيها ليلاً ونهاراً..

***

علي، الابن الوحيد لفؤاد، فؤاد محمد علي راجي العلي.. تبدأ القصة الواضحة من راجي العلي، تاجر القماش في بدئ العمر، الذي وبعد أن توفت زوجته الأولى دون أن تنجب، ورث عنها أراض. في مناطق متفرقة من أراضي المدينة، وإذ بدأ الزحف الصهيوني على البلاد الفلسطينية، وقد بدأ زحف بعض. من أهالي رام الله نحو الشتات ناجين بأموالهم التي قد أخذوها ثمناً لأراضيهم. كان راجي العلي قد تملك مساحات شاسعة من تلك الأراضي التي قد باعها مالكوها بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيها من الزاهدين..

وبعد أن تملك كل تلك الأراضي.. أورثت لابنه الوحيد علي الذي قد جاء في كهولته وأصبح دون أدنى مشقة منه من ملاكي رام الله، ولتكتمل القصة دون أي معيق، فقد أنجب ثلاثة أبناء اثنان منهما غادرا البلاد بسرعة في أوائل الحرب الجديدة، ليورث محمد الأرض كاملة دون نزاع..

وتتالت التوريثات إلى تملك فؤاد ثلث الأراضي، وقد باع شيئاً منها لإقامة مشاريع اقتصادية ازدهرت بعد مجيء السلطة في الثالث والتسعين، وما ورثت فتاة قط..

وجاء علي من أب موسع، وأم من بيت ريما تعرف عليها والده أثناء عملها في إحدى المستشفيات وقد مرض، وكف عنها عملها وتزوجها.. وأنجبا..

علي، الذي خلق وفي فمه معلقةٌ من الذهب وعلى رأسه أيضاً فقد كان أشقراً، ورغم دلال العائلة الزائد منذ صغره باعتباره الطفل الوحيد إلا أنه كان رجلاً من صغره، ولما كبر زاد رجولةً..

في الرابعة عشر من عمره بدأ تطلعه لامتلاك الأشياء وإثبات نفسه، فقد طلب من والده أن يعمل في إحدى شركاته، لكنه قوبل بالرفض إذ ارتأى والده أنه ما زال صغيراً جداً..

في التاسعة عشر من عمره، افتتح متجراً صغيراً للألعاب الرياضية بأموال قد جمعها من مصروف كان يعطيه إياه والده وقد كان زهيداً، لكن مشروعه لم يدرر بما يكفي من الأموال وقتها وأغلقه بعد مدة ..

الآن ها هو يدرس التجارة في الجامعة.. محاطاً بأعين
كثيرات اللاوتي صوبن أعينهن عليه، كانت فتاة
احدة من استطاعت شباكها الامساك به.. حاول لمرات
مرات البوح لها بحبه.. لكنه كان يرتجف في كل مرة
ينعقد لسانه.. ذاك ما جعل علاقتهما تؤول في النهاية إلى
صداقة فقط..

3LouB

**

في حديقة الاستقلال كان ثلاثتهما يقومون بالأعمال معاً
يضحكون كثيراً، تلك الضحكات التي ستستمر لاحقاً
وقت ليس بالطويل، لكنه سيخلف ذاكرةً خصبة لثلاثتهم..

ماذا يمكن أن يحدث لو التقى شابان يشبهان بعضهما إلى
درجة كبيرة، بامرأة لا تشبه أحداً؟.. تلك قصة أخرى..

في ثاني يوم من العمل في حديقة الاستقلال، كانت قد ازدادت جمالاً هي بينما هما كانا قد بدا بالتعلق فيها أكثر والاستمتاع بضحكتها.. ولمّا جلسا جانباً بعيدا عنها للحظة، قال علي موجها الخطاب لمعاذ:

- تخيل نحب نفس البنت؟

وضحك الاثنان كثيراً وهما يطرقان بيديهم.. ثم رد معاذ:

- وتفرق بيننا؟ ونبطل نصحاب ونتقاتل؟

ثم زادت قهقهتهما كثيراً إلى الحد الذي قد سمعته هي عن بعد..

- تعالوا اشتغلوا بدل ما انتوا كاعدين بتتضحكوا..

وقد نظر الاثنان إلى بعضهما ثم قالا معاً:

- أكيد مش هاي..

ثم نهضا..

***

لم تنتهي صداقتهم بانتهاء العمل في حديقة الاستقلال، بل على العكس فقد ازدادت صداقتهم كثيراً، وبدأ بالالتقاء مراتٍ كثيرةٍ ولفترات طويلةٍ جداً تكاد لا تنتهي، وإذا انتهت تبدأ مرة أخرى بعد وهلة..

في الجامعة، في مقهى في رام الله، حديقة الاستقلال، في الشوارع، في مطعم ما، وفي كل مكان. كان يمكن أن يتلاقوا فيه.. وحتى إذا ما افترقوا فإنهم يكملون حديثهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي أو الهاتف..

لم يتخاصموا يوما واحداً، كان كل شيء يسير بصورة مثالية أو أقرب إلى المثالية، رغم أنهم -ثلاثتهم- مختلفون بأفكارهم السياسية..

فعلي كان يرى -بعد ثلاثة عشر سنة من المفاوضات- أن المفاوضات السياسية هي منبع كل شيء، وأن السلطة الحاكمة تعرف ما تقوم به، وأننا نسير بالاتجاه الصحيح، وأن إطلاق حجرٍ على دبابة ليس بالأمر الحكيم بتاتاً، وأن لا قوة بيدينا تجعلنا نواجه المحتل بغير السياسة.. نهاوند كانت تلعن السلطة مراراً وتكراراً وتلعن والدها معهم، كانت ثوريةً جداً رغم ضعف عودها وضعف

قلبها، لكن من ضعفها تتشتق الحياة فتخرج.. وكلما تحجج علي بعدم وجود سلاح، كانت ترد أن سلطته هي من قامت بنزع السلاح أصلاً..

أما معاذ، فكان هادئاً في معظم النقاشات، متحججاً بأنه لا يريد الدخول في نقاشات كهذه دون فائدة مرجوة، بعد كل تلك المشاكل التي كادت أن تودي بحياته.. فمعاذ الذي كان ملتصقاً في الدين إلى حد كبير جداً، كان يرى أن الله يروث الأرض وما عليها لمن يشاء، وأننا إذا كنا ضعفاء ولم نستطع مقاومة السلطة قبل الاحتلال فلا ذنب للاحتلال باحتلالنا ولا للسلطة بالتسلط علينا..

في النهاية إنها مسألة سيطرة وفرض قوة، وأيّ كانت الطريقة فالغلبة للأقوى..

***

بعد أن أمضيا عشرة أيام إضافية مع بعضهم بكل لحظة وما فيها من الضحك والحياة، اتصل علي يوما على معاذ:

- وينك؟ لازم اشوفك ونحكي شوي..
- في إشي؟
- لا بس تعال

***

إلى جانب كلية التجارة في الجامعة كانا قد جلسا بعد أن حضنا بعضهما كالعادة

- كل إشي تمام؟
- انت حاسس إن كل إشي تمام؟
- إيش في؟
- نهاوند
- مالها؟
- مش مالها هي.. مالنا احنا! معاذ بعرف إنك بتحبها، مش هون المشكلة.. المشكلة إني كمان أنا بحبها..

وكانت تلك بمثابة صدمة كانت تؤجل من كليهما، كانا يدركن الأمر منذ عدة أيام لكنهما حاولا عدم تصديقه،

كلما يقطر السقف أكثر يقول أحدهما أنها لا تمطر ويرد الأخر أن السقف لم يتلف بعد.. لكنها الحقيقة لقد وقع الاثنان في شرك واحد، كانا يعلمان..

ولما راى معاذ علي قد يبس وجهه، أطلق قهقهة ثم وضع يده على ظهر صاحبه وربت عليه:

تخيل نحب نفس البنت؟!
ونفرق بيننا؟ ونبطل نصحاب ونتقاتل؟
ثم زادت قهقهتهما كثيراً.. وتعانقا..

...

في اليوم التالي بدأت الاشياء تأخذ منحنى اخر حيثما دون الاثنان تخفيف ما يحدث، وإمساك زمام الأمور، علي لم يذهب للجامعة أصلا متحججا بأنه مريضٌ قليلاً، وأما معاذ فهاتف نهاوند وباح لها بأنه لن يستطيع الإلتقاء بها في هذا اليوم لانشغاله بعدة أمور..

كانا يحاولان أن يستيقظا من الأمر.. لكن أحداً لم يقدر..

ثلاثة أيام ظلّا على هذا النحو محاولين الهروب من الواقع.. عبثاً كانا يحاولان..

ولما التقيا في اليوم الرابع احتضنا بعضهما ثم جلسا، وأشعل كل واحد منهما سيجارةً، ثم استنشقاها وتحدثا..

- وإيش هلقيت؟

- منافسة شريفة؟

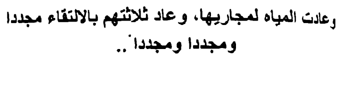
- وشو ما صار بنخسر ش بعض؟

- مستحيل أخسرك معاذ.. بخسر حالي وبخسر كِش..

ولما أدار وجهه سأله معاذ

- والبنت الي كنت تحبها؟

- ما بعرفش معاذ..



وعادت المياه لمجاريها، وعاد ثلاثتهم بالالتقاء مجددا ومجددا ومجددا ..

إلى جانب كلية التجارة، وتحت شجرةٍ من أشجار السرو
التي طال عنقها كثيراً كانا قد جلسا، نهاوند ومعاذ..
ممسكاً بحقيبته متلبكاً وقد نظر إلى عينيها وقد كانتا
حزينتين:

- كيف باهي؟
- منيح.. ناوي يخطبني رسمي عالصيف هاد
وكان ذلك قد حرك شيئاً بداخله، وجعله يتلبك أكثر بعدما
وضع الحقيبة جانباً، وشبك يديه..
- ممكن أحكي إشي؟
- اه طبعا.. إيش في؟
- بتعرفي لما واحد يكون كل إشي مش منيح في حياته
وبعدها يصير كل إشي يبين إن منيح مع إنه مش منيح
بتاتاً.. بس لأنه في شخص واحد دخل عحياته .. إيش
هاد معناته؟
- ما فهمتش..
- عمرك حسيتي إن الأرض بتلف بسرعة؟! وإن الهوا
برضو سريع، وإن الدم بلف بجسمك بسرعة، وإن
قلبك بِادوب ملحق، وإن إنت بدك ترقصي كد ما إنت
مبسوطة؟

- ما بعرف.. ما فهمت.. ايش بتحاول تحكي؟
- إني بحبك مثلاً..

***

« صديقي الجميل معاذ، أولا سأشكرك لأنك بُحتَ لي بالأمر بطريقة جميلة ودون أي إزعاج بتاتا ً. ثانيا، إن الأمور الجميلة تحدث في وقت غير مناسب تماما ً، أنتَ تعرف أنني أكِنُ لك مشاعرا، ولن أفصح عن ماهيتها.. لكنك تعرفها، لكن الوقت غير ملائم بتاتا ً، سأخطب عما قريب، ولا أريد لصداقتنا أن تنتهي.. نحن لن نكون لبعضنا يوما، لذا.. أرجوك، أبقَ بالقرب مني ولا تذهب، دَع الأمور تحدث كما ينبغي لها أن تحدث».

كان قد وجد هذه الكلمات في رسالة على هاتفه..

***

- لمحتلي إنها بتحبني..
- ولمحتلي إنها بتحبني أنا معاذ.. وحكت.. حكتلي إنها بتحبكش.. وإنك مجرد صديق..
- ما بعرف.. الأمور مخربشة براسي علي..

***

2016/5/24

كانت الأشياء تحدث بسرعة، إلى ذلك اليوم حينما شعر معاذ أن شيئاً غريباً ما يحدث.. فقد وصل الساعة العاشرة للإلتقاء بهما وكانا جالسين وبعد أن سلم عليهما..

- زمان الكم؟

- اه تأخرت.. اتفقنا عالتسعة..

قالت نهاوند، فحدق معاذ بعلي، وتذكر أنه من قال له البارحة أن يأتي تمام العاشرة..

بعدما وضع حقيبته وهاتفه جانبهم..

- بدي اروح أشوف المكتبة، في كتاب لازم أجيبه..

- مش رح أطول..

- طيب خد شنتك وتلفونك..

- خليهم شوي.. مش رح أطول..

- يا زلمة خدهم..

كان قد وصل أعلى الدرجات حينما أعاد تكرار الجملة « مش رح أطول».

***

- منيح إلي إجيت.. وهاد بدكش اتطول؟

- رحت شفت الدكتور شوي..

ممسكاً بهاتفه واضعاً سماعته في أذنيه وقد جلس على إحدى الدرجات بينما كان علي يتلذذ بسيجارته ونهاوند كانت تروح وتجيء ممسكة بالكتاب تتمتم بكلماته..

وبعد عشر دقائق.. التقط معاذ نفسه ثم ودعهم وذهب..

***

ليلتها، وصلت رسالة إلى كليهما، تقول بأنه ينسحب من الأمر، وأنه ما عاد يستطيع التحمل..

***

ـ معاذ إيش في؟

ـ كان لازم أنا أسألك هاد السؤال..إيش صار هناك؟

ـ معاذ هاي بتلعب فيك.. انا بديت أفهم.. بتحاول تضحك علينا الثنين، إيش حكتلك؟ فهمني بس!لمحتلك إنها بتحبك وعملت نفس الشي معي..

ـ إيش صار لما أنا رحت على المكتبة؟

ـ ولا إشي.. كنا نحكي..

ـ وما حاولت تعمل اشي؟

ـ إيش؟ مجنون انت ؟هي بتضحك عليك..

ـ ما حكيت معها ولا اشي..

ـ والا كيف عرفت؟

ـ نسيت تلفوني معكم، وشكلي كاين ناسيه بسجل صوت..

ـ إتفقنا إن المنافسة شريفة معاذ..

***

بعد جدال طويل يومها، استمر لما يزيد عن ساعتين، جدال
ينهي وقتاً جميلاً لم يكن بالقصير بتاتاً بين صديقين..

لكن الأمر قد اتضح.. هذه العلاقة ستأخذ منحنى آخر..

في نهاية الأمر، كل الأمور تؤول إلى صراع على العرش وعلى السلطة وعلى التملك.. حتى في الحب.. والجميلة التي افتعلت أول حرب في التاريخ بين ابني آدم ولم يُعرف ما حدث لها في باقي الحكاية عادت الآن وافتعلت حرباً بين صديقين..

لم يكن ذلك الحب إلا منافسة أخرى بينهما، للذي قد يصل إلى قلبها..

الصديقان اللذان ابتدأت صداقتهما بمنافسة انتهت بمنافسة أيضاً دون أن يربح أحدهما، لقد خسرا ما لن يستطيعان تعويضه أبداً، لقد خسرا الثقة بينهما ..

وبدأت السحابة تنكشف رويداً رويداً، علي الذي كان سياسياً يحاول جعل الأمور تنصب إلى مصلحته في النهاية حتى ولو كذباً.. وقد كان قد قال لمعاذ بأنه نسحب من الأمر قبل أن يقنعه معاذ بالمنافسة الشريفة

.. ثم حاول هو الوصول الى قلبها بشتى الطرق..
..ية.. في مكان ما راقصها واقترب من الشب وهمس
«أحبك» لترد هي «اصطدني ان استطعت». في مكان
آخر احتضنها حتى كادت أن تلتصق عظامهما. في مكان
ثالث باح لها بأن معاذ مريضٌ نفسياً. في مكان آخر باح
لها عن سمعة معاذ التي بدأت تتطلخ في الجامعة لعلاقاته
الكثيرة..واتضح فيما بعد أنهما كانا يتلاقيان في كل صباح
بعيدا عن عيون معاذ..

معاذ الذي حاول تملك قلبها بغزله، بمداعبته، بلطافته معها، كان قد حلل وقتها الأشياء الكثيرة التي حرمها على صديقه، مكالماته لها ليلاً، امساك يدها كلما حاولا قطع الطريق متحججاً، ابداء فضله على صديقه بأشياء كثيرة، والحديث معها عن علاقة صديقه السابقة باحداهن .. حتى أنه كان قد حلل التلصص على حديثهما باعتبار أن الأمر سيتضح أكثر..

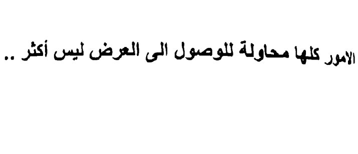
أما نهاوند، فكانت في تلك اللحظة الأكثر غباءً، لم يكونا يعرفان أكانت تتلاعب بهما الاثنان أم كان مجرد ضعف منها، أم أنهما الاثنان فهماها خطأً ..

ي النهاية، وبعد أن اتضحت الأمور تلك، خسر الاثنان
لحرب وانتصر من لم يخضها .. باهي ..
نبيه هو الحب بالوطن، يتقاتل أبناؤه على من يحكم
لأمور في الوقت الذي يتملكه الأعداء..

لقد خسر ثلاثتهم..
د يومين، علي خرج من الأمر راجياً منهم الخروج
ن حياته..
ا معاذ فكان يحتاج إلى أي شيء يبقيه حياً.. لقاء واحد
غير ما كان يبغيه..
حدث ذلك..

*

- معاذ هاي عاهرة، حاولت تخرب بينا.. هاي مريضة نفسيا يا معاذ، تستبعدش تكون محاولة اسقاط النا ..
معاذ ابعد عنها..
- أبعد عنها لتوخدها انت؟
- هاد الي بتفكر فيه!!..



الامور كلها محاولة للوصول الى العرض ليس أكثر ..

***

كما كانا قد اتفقا أن يلتقيا لآخر مرة بعد كل ما حدث وكأن لا شيء قد حدث.. وأن يكون ذلك اللقاء الأخير بينهما، أمام عاصمة التنسيق الأمني المقدس، على نفس الرصيف، بجانب الإشارة الضوئية كان قد انتظرها وحيداً هذه المرة.. لعشرين دقيقة ظل، متلبداً يستجدي الله أن يمن عليه بشيء يطيل الوقت حتى يكاد لا ينتهي، وكيف بإمكان أحدهم أن يترك كل شيء وراءه وهي كل شيء؟! ولما رآها قطع الشارع ذاك حتى قد وصل إليها، ونظر إلى عينيها دون النظارة تلك، وأمد يده إليها فالتقطتها، وقطعا الشارع ممسكين بيدي بعضهما، وظلا طيلة الطريق من الإشارة الضوئية حتى الحديقة تلك ممسكين بيدي بعضهما دون أن ينطقا حرفاً، كانا مبهمين إلى درجة تجعل أحدهم لا يظن أنهما سيفترقان إلى الأبد هذه المرة بعد عدة ساعات..

وجلسا على مقعد خشبي هناك، وتحرك حاجبه بعدما رسم على شفتيه ابتسامة، وكانت فاتنة، وكان عاشقاً..

وسبحان من لا يُحمَد على مكروه سواه، وسبحان الذي خلق الأنام وخلق وجهها، وسبحان الذي رسم فيه كوناً

آخرا .. وسبحان من أنزل على قلبه الرحمة على هيئة امرأة، فأنا له أن ينزعها الآن؟!

حدق فيها، تفحص ما بان من الجسد الذي قد عتق جمالا ً كمن يرى النص لآخر مرة محاولا ً حفظه عن ظهر قلب، ولما يئس من الأمر أمسك بيدها وشدها وبدأ بالسير..

كانا في تلك اللحظة أشبه لنجمتين قررتا الموت فجأة، فرميتا ما تبقى من نورهما.. كانا يحترقان..

ولما مرا بجانب نبتة وكأنها كانت قد أزهرت للتو لهما، قطفها وأزاح عنها شوكها وأمدها لها كمن يقدم لله قربانا.. وتأرجحا كما اعتادا كلما أتيا إلى هذه الحديقة، كان الصمت -الذي طال كثيرا ً- يزيد الأمر توترا ً، كأنهما كانا ينتظران إلقاء قنبلة على قلبيهما تنهي الأمر وتنهي الحياة معه..

استعاد ثبات جسده، وقفز من الأرجوحة تاركا ً إياها وراءه، وتوجه إلى حقيبته التي كانت لا تزال راقدة ً على المقعد الخشبي ذاك، فتحها والتقط منها دمية كان قد شراها سابقا.. أعاد ناظريه إلى نهاوند التي ظلت تتأرجح ملقية بناظريها عليه، ومشى صوبها إلى أن وصل إلى مقربة منها، وحاول بيده تخفيف تأرجحها إلى أن استطاع

ذلك، وأمد يده وأعطاها الدمية تلك..

- محلاها، شكرا كثير..
- هاي ليزا.. كان المفروض نتجوز ونجيب بنت نسميها ليزا مش هيك؟

وأخذ نفسا، واستطلع عينيها..

وضحكا.. مادا يده إلى يدٍ هيَ لها، لامسا أطراف أصابعها متحسسا إياها كمن يحاول ملامسة البحر لأول مرة فيما كانت هي هادءة تماماً تنظر إلى عينيه اللاتي كن يتفحصن يدها وقد بدأت بالرجفان.. وظلا لما يزيد عن دقيقتين يتلاعبان بأطراف أصابعهما، طفلان كانا وكان العالم موحشاً..

وقد ضحكا، أدار وجهه إلى اليسار قليلاً ثم أعاده إلى مرقده الأول، وحملق في عينيها راجياً إياهما أن تنطقان..

وطال الوقت قبل أن تتمتم

- أه صح.. جبتلك إشي..

ومدت يدها إلى جيب في البنطال وأخرجت قلادةً على شكل مسدس من نوع m16 .. وكانت تلك عقدة القصة الجديدة..

***

معيدا جسده إلى ظهر الكرسي، راسماً على ملامحه علامة استفهام. وقد رفع حاجبه الأيسر وأنزل أيمنه تمتم بنال:

ـ من وين جابت السنسال؟

ـ معاذ قلي إنك أذكى من هيك..

ـ شوي.. يعني هي كانت البنت التي تصاوبت بأول القصة؟

**

وقد امتلأ عقله بالحيرة والغموض، وظن لوهلة أنه حبيس شراك مؤامرة كونية حيكت للإيقاع به في حبها مرة أخرى، كيف يمكن أن تكون هي نفسها التي وقعت في اليوم البئيس ذاك، وقد اضطر يومها لمرافقتها للمشفى شادا على قدمها بقلادته تلك لإيقاف النزيف..

وقد خال لوهلة أنه قد فقد القلادة تلك، وقد خال لوهلة أطول أنه قد فقدها هي، إلا أن هذا الأمر جعله غير موقن مما سيحدث تباعاً، وأردى في نفسه الحيرة التي جعلته غير قادر على الكلام حينما ردت إليه قلادته، ممسكاً بها ناظراً إليها بعينيه وقد دق قلبه وقتها من جديد، دقة

الحياة من جديد، تلك الحادثة التي ستنقش في ذاكرته لوقت طويل جداً معنى القدر..

وظل، لما يزيد عن ست دقائق دون أدنى محاولة منه للكلام، محاولاً استجداء نفسه كي تقنعه أن هذا النص غير واقعي، لكن كل الدلائل وقتها كانت تشير إلى واقعيته وتشير إلى أنه سينكسر تباعاً على إثر هذه الحادثة..

- مش قادر أفهم!

نطق وقد أدرك وقتها أن الأمر كما كان يبدو لا محالة. لقد كانت هي تذكر.. شعور أطراف الأصابع عندما شد يدها مستجدٍ إياها أن لا تموت، سلسلته على أسفل قدمها، صورة أبيها الذي شك للحظة أنه قد رآه سابقاً.. كل الدلائل واضحة، ولا يمكنك الإنكار.. في هذه اللحظة، عليك الاعتراف والخضوع لما حدث.. الإنكار لن يجدي نفعاً..

- لو سمحت إحكي إنك مش انت هديك البنت..

وقد رفع رأسه إليها، كانت صامتة في الوقت الذي احتاج فيه هو أن تنطق ولو بكلمةٍ توضح الأمر برمته.. وقهقه.. كثيراً..

وبعد ان أيقن بأن الأمر لم يكن إلا كما كان يبدو.. أعاد يده الى يدها، ملامسا أطراف أصابعها قبل أن تتكلم..

بهداك اليوم لما صحيت ولقيت السنسال محطوط على الطاولة جنبي، عرفت إن كل الأصوات إلي كنت أسمعها وانا مغمى علي ما كنتش خيال، يدك الي امتدت لتربط السنسال، أصابعك إلي لامسو أطراف أصابعي، ايدك الي ضلت ماسكة في لحد ما وصلت المستشفى..

- وكيف عرفت إن أنا هاد الشخص؟

- صديقتي لما إجت على المستشفى كنت انت هناك.. وكانت تعرفك

نهض وقد أعاد ترتيب هندامه، وقد ابتعد متجها إلى المقعد الخشبي جالساً عليه وقد أغمض عينيه.. فتحهما بعد أن سمع خطواتها متجهة إليه..

- يالله نروح؟

أخذ نفساً من جديد، وأغلق حقيبته وقد مدت إليه يدها.. نهض دون مساعدة منها..

- ممكن أخليه معي ذكرى منك؟ وتوخد إنت هاد.. سنسال جبتلك إياه.. RBJ

- تبادل أسرى مش أكثر؟
- تبادل أسرى مش أكثر..

وكان ذلك اليوم هو آخر يوم. قد رآها فيه.

استمر الحب اسبوعا،
بينما استرينا في وداع بعضنا عدة أشهر ..

***

بعد ثلاثة أيام على الساعة التاسعة ليلاً اتصلت به وهي تبكي، وقد بالغت في بكائها..

- نهاوند إيش مالك؟
- إيمتا توقيع الرواية؟
- لسا بدها وقت..
- انشرها عن قريب معاذ لو سمحت..

صمت كبير حل في المكان قبل أن تنطق هي:_

- بحبك..
- جد؟

وقطع الهاتف.

***

2016/6/1 صباحاً..

كانت قد وصلت رسالة على هاتفه

«اربع وستون يوماً قبل صدور رواية لا تقرب النساء»

كاللحظة الأولى من فض البكارة، خوف، خجل، وحاجة ماسة لحضن دافئ وكلمات مطمئنة ولكن لم يكن منك إلا أن تشكك في مصداقية حبي، ومصداقية تلك الكلمة الواحدة والوحيدة التي استلزمت مني شجاعة فارس عودة بحجره الواحد والوحيد في مواجهة تلك الدبابة الواحدة.. ثم تتركني أمضي بقية الليلة، ليلتي الأولى وأنا امرأة كاملة.. وحدي..

ملاحظة أولى:_ الشعور المذكور فوق لا يعبر بالضرورة أنني قد جربته.

ملاحظة ثانية:_ تصبح الامرأة كاملة عند اعترافها بالحب.

لم أكن أشك للحظة أن لحظة اعترافي لأحدهم بالحب ستكون فاشلة إلى تلك الدرجة، والآن.. أنا لا أطلب منك شيئاً، لا أن تتغير ولا أن تغير شيئاً، فقط ركز على

توقيع روايتك، واجعلني فخورة..
حاول الاتصال بها مراراً وتكراراً بعدها لكنها لم تجب...

**

من مذكرات معاذ جهاد 6/15

أتعرفين ما المشكلة التي تحدث دائما؟ أننا نظن الأمر في كل مرة سيكون مختلفا عن سابقه.. هذا الحب مختلف، هذه الصداقة مختلفة، هذه الطريق لا تشبه الأخريات، هذا الشيء لن يؤلمني كما فعل سابقه، هذا الأمر لن يتكرر، هذه الحادثة لن تحدث، هذا الشخص لن أفقده، سيكون كل شيء بخير.. وفي كل مرة نكتشف أن الأمر يشبه سابقه كثر مما يشبه نفسه، ونكتشف أن حياتنا ما هي إلا دائرة غلقة من البلاهة والتكرار..

ندت اثنين وثلاثين صديقا وفي كل مرة كنت أبتسم اخلي وأقول أن هذه المرة آخر مرة وأن هذا الشخص ذا المكان وهذا الزمان لن يكون كسابقه، وأن علاقتنا ه صحيحة وصحية جدا..

ريب في الأمر.. أن الأمر ينتهي دائما في الوقت الذي ن متأكدا فيه أن الأمر لن ينتهي، في قمة ثقتك ينتهي

الأمر ليكسرك ويهزم ثقتك وجبروتك..

تبدأ العلاقة وتنتهي تماماً بالطريقة ذاتها التي ابتدأت فيها وانتهت سابقاتها، ستختلف أماكن اللقاء، أوقاتها وطريقتها.. أمام اشارة مرور أو أمام محل حلويات، الساعة التاسعة صباحاً أو الخامسة مساءً، ليس بالفرق الكبير ففي كل الحالات ستلتقون ببعض. من الارتباك، في المرة الأولى ستبتسمون ابتسامة صغيرةً خجلة عن بعد، ستصافحون بكل أدب، ستجلسون متباعدين بتهذيب، ستأكلون بانتظام وقليل من البرستيج تاركين قليلاً من الطعام متحججين بأنكم قد شبعتم، ستتحدثون عن أمور عامة، ربما عن حادثة القتل الأخيرة، عن الاحتلال، عن المجتمع عاداته وتقاليده، سيصرٌ كل واحدٍ منكما على الدفع عن الأخر، وأثناء الوداع سيكون الوداع بكل لطف أملين الالتقاء في أقرب فرصة تحدث..

فيما بعد.. ستتغير الأمور كثيراً، ستبدآن بالتلاقي في كل مكان ممكن وفي كل وقت ممكن، ستسغنيان عن التصافح وتغييره باحتضان بعضكما، ستجلسون بالقرب من بعضكما، تتشاركان نفس الطعام والشراب بلا برستيج بتاتاً بل وإنكما ستبدآن بالتفاخر والمنافسة على أيكما

سيستطيع أن يأكل بطريقة أقل حضارية وأكثر تخلفاً،
لن تتركا من الطعام شيئاً وسيهرب أحدكما من المكان
مجبراً الآخر على دفع الطعام كاملاً، أكثر حديثكما فائدة
سيكون عن جيرانكم المزعجين وعن محاضري الجامعة
وعن فاطمة التي تركت حبيبها قبل عدة أيام، وستنسيان
وداع بعضكما أصلاً..

ثم في لحظة ما، يحدث ما يجب أن يحدث..

أنت تعلم أن الوقت الذي سيحدث فيه البرود آتٍ لا محالة..

ستغلق الهاتف في وجهك، لن ترد على المكالمة التالية، لن تجيب على رسائلك وحينما تسألها عن الأمر ستقول أنها الإنشغالات ليس إلا..

عندما تحب لأول مرة فإنك تعطي الشخص قلبك كاملاً، عندما تخسره فإنك تخسر شيئاً من قلبك معه لكنك تعرف أنك ستعود بشيء منه.. ولكن عندما تحب أحدهم ببواقي قلب فإن الأمر أصعب كثيراً، ذلك يعني أنك تراهن على آخر ما تملك، وعلى كل ما تملك..

والمشكلة الأكبر.. أنك كنت تعين هذا الأمر جيداً.. بحذافيره..

في نهاية الأمر، تكتشف السعادة أننا مجرد ملاذٍ خاطئ لها.. وتتركنا، تهدينا الأشياء التي نودُ لو أهديت لنا منذ زمن طويل، الأشياء التي نود سماعها، المشاعر التي نود الإحساس بها، الضحكات التي قد التصقت بشفاهنا، النكات السخيفة التي نود سماعها مرارا وتكرارا، كلمة «أحبك» التي قيلت لمرة واحدة وظلت آذاننا تسمعها مرارا ً، والأشخاص الذين أصبحو دنيانا كاملة.. تعلقنا بالأشياء كثيرا ً، ثم ترميها بعيدا ً عنا ونحن الذين أصبحنا لا نستطيع المضي قدما دونها..

ثم ماذا؟ ثم يتركوننا، يتركوننا وقد عاثوا في القلب فسادا ً بعد أن ظننا أنهم زرعوه حبا ً، والصحراء أصبحت قاحلة عندما تركتها المياه منذ سنين عديدة..

أكان قلبك بابا ً ليدخلوا إليه ويخرجوا بكل تلك السرعة؟!

وماذا عن أزهار قلبك؟ احتضنوها، كثيرا.. إلى الدرجة التي لم يصلها ضوء الشمس ولا أكسجين الحياة.. اختنقت، وماتت..

ليست المشكلة بتاتا ً أن تكون خارج النص من أوله، لكن المشكلة الكبرى أن تصبح ممثلا ثانويا في الوقت

الذي كنت تخال فيه نفسك بطل الرواية، أن يصبح دورك جانبيا ً وأن ينزعوا منك المعاطف ثم يتركوك ويوجهوا الكاميرات إلى شخص آخر وأنت الذي كنت تظن أن الفيلم سينتهي معك، انتهيت أنت وأكمل الفيلم..

المشكلة الكبرى أنه لم يكن يحسب للأمر حسابا ً كهذا، كان أكثر أملا ً بأن يستمر الأمر حتى النهاية..

ساعي البريد من أتعس الناس حظا، يحمل كل تلك الرسائل المعتقة بالحب والحنين وما كان عنوان إحداها يوما عنوان بيته، بائعة الورود لم تهدى يوما أي وردة..

والكُتاب، لو أنهم استطاعوا أن يكون أبطال رواياتهم ما تنازلوا ليكونوا كتابا .

أما هو، فلم يتنازل عن شيء.. بل الدنيا- كل الدنيا- تنازلت عنه..

وقد أدرك بعد مدة ليست بالطويلة أنه خسر أجمل ما قد ملك يوما ً، صديقه ..وكيف له أن يقوى على استعادته او استعادة شيء منه ؟ من ذا قد يزيح من عينيه عينيه و ينسيهما عبء كاهله وثقل الجريمة ؟! من ذا قد يعطيه نفس ابتسامة صديقه ويرسم على شفتيه بسمة؟ ومن ذا

يطرح عليه السلام في كل صباح؟
من ذا يداعبه او يلاعبه؟
من ذا قد يشارك الحياة وبعض جنونها وانكسارات الحزن
على غيمة صيفية؟!
من ذا قد يكون ظله؟!

كانت ذاكرته قد تشبعت به الى درجة تكفي لجعله لا ينتسى منها، فكيف له الان أن يغطي حزنه أو من ذا ينتزع الوجع والأسى من صدره الملذوع حيرة وبؤسا ؟!

في تلك الفترة ما عاد له صديقٌ قط، وهو الذي كلما تعلق بأحدهم أهداه روحه على طبق. من ذهب وقال خذها، لم يدرك أنه سيأتي ذلك اليوم الذي لن يرن هاتفه أبداً، لن يعانقه أحدهم، لن يتمشى مع أحدهم، لن ينام على كتف صديقه،

ولن يفعل شيئاً..

وإنّ كل امرأة تركته، تركت له شيئاً منها، قلادة ربما، خاتم، حلق أذن .. إلى ان كاد يفتتح متجراً بها، لقد اعتاش على الهجران..

وإنه لما ضاق ذرعا بالعلاقات التي تنضب بسرعة ألفي

بنفسه وحيدة، وكلما مرّت على سمائه سحابة خال لوهلة أنها ستمطر علاقة اختبأ في كهفه وأغلق الباب وحمل مظلتين.. وحينما طلبت منه إحداهن يوما احتساء بعض الشاي معها كاد أن يصل به الأمر أن يجعلها توقع على وثيقة تضمن العلاقة بينهما..

«رجاءً.. سيكون شرب الشاي أمام العامة، ولمرة واحدة وحيدة ولمدة لا تزيد عن عشر دقائق، سنفعل الأمر بطريقة رسمية جداً، وسيدفع كل واحدٍ منا ثمن كوب شايه، إن كانت ضحكتك جميلة فلا تتبسمي أبداً، وعندما ننتهي منه لن نتمشى قليلاً بحجة أن أقدامك تيبست من الجلوس، وبعد أن تصلي إلى البيت لا ترسلي رسالةً تقولين فيها « لقد كان يوماً جميلاً معك» وأتمنى أصلا أن لا يكون جميلاً ..

في تلك الليلة، أرجوك لا ترسلي لي أغنية لأسمعها ويفضل أن يكون نوع موسيقاك يختلف عن نوع موسيقاي، وإن كنت لا تحبين الموسيقى فذلك خير..

إن كنت من النسوة اللاتي يفضفضن عن مشاكلهن فأنا شر الناس في الاستماع إلى الهموم ولست طبيباً نفسياً..
إن كنت تبكين فلا تبكي أمامي، فنحن الرجال لا نضعف

أمام شيء كما نضعف أمام دمعة امرأة، لا تقولي لي في يوم. ما أن ابن عمك ينوي الزواج منك، إن كان مناسباً تزوجيه، وإن لم يكن فلا تفعلي.. وعلى الحالتين لا يهمني الأمر بتاتاً، ولا تجعليني أظن للحظة أنه مهم..

إن كانت عيناك جميلتين، أو روحك تطير مع الغيم من خفتها، أو حديثك يشبه شيئاً فيَّ، أو رائحتك مختلفة جداً، فأرجوكِ أبقي مسافةً كافية بيننا في كل مرة نلتقي..

لن نلتقي أكثر من مرة في كل أسبوع إن لزم الأمر، سنجلس متباعدين بمترٍ على الأقل، ومهما حدث - أكرر - مهما حدث، أبقي يدك بعيدةً عني ولا تجعليها ترتطم بيدي - وبقلبي - بالخطأ.. وأرجوكِ، - أقول أرجوك- عندما نتودع لا ضرورة لنلتفت إلى الوراء لنبتسم مرة ومرة ومرة.. فليحدث الأمر ببساطة، «ألقاك قريبا» أقول أنا ثم تذهبين في طريق وأنا في طريقٍ دون أن نلتفت للوراء بتاتاً..

لن نذهب للتأرجح، ولا للتزحلق، لن نقطع الطريق معا ، لن نمشي تحت المطر، لن نلتقط لنا صورة مع بعضنا، لن نتبادل الهدايا ولا الأسرار ولا الورود، لن نجلس على كرسيين متجاورين في الحافلة، لن نتشارك سماعة أذن

واحدة، لن نتقاسم وجبة غداء، لن نركض كطفلين في الشارع ولن تهديني كتاباً أحببته يوماً، وإن فعلتِ.. سأعتزل القراءة، أعدك..

لا تنظري إليّ يوماً وتقولي «انتَ من أجمل الأشياء التي حدثت في حياتي»، ولا تعديني أنك ستبقين معي للأبد، البشرية عاشت على الأرض منذ ستة الاف سنة ولم يبقى اثنان معا إلى الأبد، فلماذا سنبقى نحن؟

وإن حدث كل ما اتفقنا أن لا يحدث.. وقتها لا تتركيني.. رجاءً».

لم يكن يدرك أنه سيأتي ذلك اليوم الذي سيستلقي فيه على السرير ولا يفعل شيئاً سوى انتظار شيءٍ ما أن يحصل..

***

- تمام، فهمت لحد هسا، بس انت.. شو دخلك بكل هاي القصة؟!

الفصل الرابع

ما قبل خلق حواء من ضلع آدم..

ماذا فعل آدم في كل ذلك الوقت الذي أمضاه
– رغم قصره- قبل أن تأتي حواء؟

في 1996/8/22 ولدت دون أن أكون نفساً يوماً قط..

كانت ولادتي أشبه بوزر. وُضِع من كاهلي أمي أو من رحمها.. كنت محض خطإ ارتكبته الطبيبة المختصة بتحديد النسل، حينما زارتها أمي التي قررت -أو أبي من قرر ذلك- التوقف عن الإنجاب بعدما ضاق أبي ذرعاً بمصاريف أخوتي الستة، وأصبحت أغنامه وما تنتجه الأرض لا يكفون لإشباعهم أو لكسوتهم..

محض خطأ فعلته هي، كان قد سمح لأحد الحيوانات المنوية لأبي - في لحظة شهوة - باختراق بويضةٍ كانت لأمي لآتي أنا، الطفل البائس إلى هذه الدنيا، لأعيش لأكثر من ثلاث وعشرين سنة حياة شقاء..

وبدأ بطن أمي ينتفخ، رويداً رويداً.. وكانت تشعر بي، وكان أبي قد شك بالأمر حينما قال في أحد الليالي بعد أن جلست أمي على الأرض وهي تخلع لأبي حذاءه « صايرة توكلي كثير» ..وردت بسخرية وقتها:

- أه.. من كثر ما الثلاجة ملانة أكل..

وكانت تلك الجملة سبباً كافياً براي أبي ليضربها، لأكثر من عشر دقائق ظل، يبطشها وكأنه يستمتع في الأمر..

أو كأنه وجد الحجة المناسبة ليطيل في بطشه هذه المرة..
وقد وقعت حينئذ على الأرض، وكان ذلك قد خلف ندبة
فيَّ، كانت الأولى في جسدي حتى قبل أن أولد، وظلت
مرافقة إياي لهذا اليوم. شرحت أمي لي ذلك تباعاً بعد أن
أزاحت غطاء صمتها في لحظة يأسٍ حلت بها..

وبان الأمر، وأصبحت أمي غير قادرةٍ على إخفاء وجودي
بارتدائها المزيد والمزيد من الملابس التي استطاعت في
بادئ الأمر إخفائي..

وكان ذلك اليوم من أكثر الأيام قسوةً على والدي.. فابنة
موسع ما كانت قد ركضت قبل أربعة أيام لتشتري
بعضاً من الحلوى التي تحبها، وأوقعت هاتفها أرضاً
وظلت لأكثر من ثلاث دقائق تبكي عليه، قبل أن يصطحبها
والدها لشراء هاتفٍ جديد وفعل.. وحينما أرادت شكره
أثناء قيادته قبلته على خده الأيمن، وقد حجبت عليه الرؤية
فاصطدم بسيارة بجانبه وضحك وهو يفر مسرعاً..

صاحب السيارة الذي كان مديراً في أحد شركات تصنيع
المحاصيل، لما رأى سيارته قد خدشت تأبط شراً، لكن لم
يكن باليد حيلة، وظل منزعجاً طيلة النهار إلى أن أفرغ
غضبه في مسؤولٍ تحت إمرته، وكذا فعل حينما وبّخ

عاملاً ما متحججاً بأن المزروعات التي تأتيه من القرى قد قلّت جودتها، فقرّر وبعد أن فكر.. بشراء المحاصيل من مكان آخر أخذاً برأي المسؤول عنه.. وقد تلقى المزارعون الخبر، ومن بينهم أبي بغضب شديد.. الشيء الذي سيجعل أمي تصرخ ألما لأكثر من نصف ساعة لاحقاً..

وعاد أبي، الذي لم يجد من يشتري محصوله لهذا العام إلى البيت، وقد رأى بطن أمي منتفخاً بي، وهل هناك ما قد يهدئ الروع كمثل تسديد بعض الضربات إلى كرة منفوخة؟!

ووضعت أمي العشاء لأبي، وظل يحدق في بطنها كثيراً وهو يحرك فاهه بالطعام، في الوقت الذي كان فيه إخوتي ينتظرون أباهم أن يفرغ من عشائه ليأتيهم الدور بما تبقى.. وطال عشاء أبي وطالت نظراته..

وفرغ أخيراً، ودخل غرفته ونادى على أمي، وجاءت وركعت أرضاً لتخلع حذاءه كالعادة..

- ابنك بتروحي بتسقطيه..

ومع التأخر الذي كان بالفلاحين بأمور الطب، وادعائهم

بالتدين، إلا أن الإجهاض أو «الإسقاط» - بما يعرفونه-
قد وصل إليهم مبكراً..

وقد حنت أمي على جنينها -أنا - وبعد أن تحسسته وخافت عليه من بطش فرعون، وجدت أن تابوت رحمها أرحم عليه من إسقاطه، وكانت خاطئة ولم تكن تعرف أن التابوت في نهاية الأمر سيجرفني إلى قصر فرعون أو إلى بيت أبي المتواضع لأكون أكثر صدقاً.

ولما رفعت عينيها في وجه أبي، واستطاعت لأول مرة أن تعارضه فقالت « حرام»، وضحك أبي « يحرّم جلدك عن عظمك إن شاء الله، هاظ حرام بس إنَّ نموت من الجوع من كثرة ولادتك مش حرام؟ الله رح يسامحنا.. خذي مني مش حرام» وكان أبي - مفتي ديارنا الإسلامية في تلك اللحظة - قد بدأ برفع صوته تهديداً لما سيحدث، وقد فهمت أمي الأمر فسكتت، لكن ذلك لم يحمها من بطشه حينما ظنّ أنها تتجاهله بهذه الخطوة، وظلت واضعةً يديها على بطنها - علي- طيلة نصف ساعة، وهي تضرب خوفاً من أي يحصل مكروه لي..

وبعد شهرين وبعد أن ضاق أبي ذرعاً، ضربت أمي كثيراً في ليلة ما، لكنني كنت وقتها قد تشبثت بالحياة

وبأن أتي، فانجبتُ قبل موعدي بشهرين من وجع رحم أمي، ومن رحم الوجع ولدت.. وجئت أنا.. الابن السابع..

حينما ولدت، لم اكن أعي شيئا ً، لكن الوجع والألم لا يحتاجان إلى الوعي البتة، نحن ندركهما دون وعي..

وتأخرت في النطق إلى سن السادسة، لكنني أتقنت التقبيل وأدمنت حضن أمي..

وكنت ارى الأشياء غامضة مبهمة دون تفسير، وكنت أحاول تفسيرها وكانت أمي تحاول إخفاء الأمور، فالوضوح موجوع احياناً، وخاطت لي دمية حينما زارتنا جارة ٌ لنا مع ابنها وقد أحضر سيارة صغيرة ً معه كان يلعب بها ومنعني ذلك.. ووعيت لأول مرة ٍ وأنا ابن الخامسة بأن هذه الدنيا ليست عادلة ً بما يكفي، وأنها ظالمة للذين لم تكن أمهاتهم أمي..

ورأيتها تضرب، مرارا وتكرارا ً.. وما تجرأت يوما ً أن أحمل عنها وزرا ً، وهي التي حملتني سبعة أشهر كاملة وكنت وزرا ً.. لكنني وبعد أن كنت أختبئ خلف الباب حينما يعلو صوت أبي، وأسمع صرخات أمي، أنتظر الهدوء.. الهدوء التام ثم وقع صوت خروج أبي، وأقترب من أمي وأحضنها محاولا ً جعلها تغفو وكنت أنا من يغفو

في نهاية الأمر..
وظلت تمنعه أن يأخذني إلى الأرض حتى جاء ذلك
اليوم، كنت قد أكملت السادسة منذ وهلة، وقد بدأت أخيرا
بتركيب الأحرف ناطقاً بعض الكلمات، وقد حاولت أمي
تعليمي نطق الكلمات..

وصاح أبي بأمي صباحها « لليش بروح على المدرسة
إذا مش عارف يحكي هالهبل؟»

ربّما كان قد توجّب عليّ أن أنطق بأية كلمة، تبعد عني
بطشه وتقيني إياه، وقد فكرت كثيراً، واسترجعت الذاكرة
سريعاً وأنا أراه يخطو إلي، وكان لا بدّ أن أستجمع كل
قواي وأن أنطق بكلمة واحدة فقط.. مجرد كلمة..

واقترب مني كثيراً، وكان الوقت ينفذ بسرعة، وقد
صعقت في ذهني كلمة واحدة، ومن أحبُّ إلى أبي من
حماره؟

وقد أعدت الكلمة مرتين في عقلي قبل أن يباغتني «إيش
اسمي أنا؟».

ونطقت دون أن أفكر حتى « حمار».. ثم أدركت أن
الكلمة - بعد كل ذلك المجهود- ما كانت في موضعها،

أدركت ذلك بعد أن وضعت أمي أربع كمادات . على ظهري..

وحاول أبي إخراجي من المدرسة في بادئ الأمر، لكن معلمة ً كانت تردد باستمرار لأمي بأن علمات الذكاء واضحة ً علي، وأن التأخر في النطق ليست نهاية العالم جعلت أمي تصرُ على إرسالي إلى المدرسة مهما كلفها الأمر..

لكني وبعد ثمان سنين، وحين عدت إلى البيت ووجدته فارغاً إلا من عماده – أمي- بحث لها - وكان وضعنا يزداد سوءا ً وقتها- بأنَ عليّ ترك الدراسة الآن قبل أن أصل الى حائط مغلق. وكانت نتائجي وقتها مرضية ً جدا ً ولكن.. ماذا لو أنهيت الثانوية العامة؟ كيف سأكمل تعليمي الجامعي؟ المال الذي كنا نملكه لم يستطع تغطية ديون أبي التي بدأت بالتراكم..

وبحثُ لها بأن أحدهم سيجعلني أعمل عنده في تصليح السيارات.. ووعدتها وقتها، دون أن أعلم كيف، بأنني سأدخل الجامعة في يوم ما وأكمل تعليمي..
وهذا ما حصل.. واستمرت حياتي منذ ذلك اليوم على وتيرة واحدة.. أصحو على السادسة متوجها إلى العمل،

وأعود منه على السادسة.. ثم إلى حضن أمي..

لم أكن أملك من الوقت ما يجعلني أفكر بالمستقبل أو ما سيحدث به تباعاً، أو لأكون صريحاً.. كنا من الذين يكادون لا يعيشون الحاضر من قسوته، فكيف سنفكر بالمستقبل؟

وكنت كلما أن جاءتني فكرة من ها هناك، اتكأت على واقعي ورميت كل الثقل على الظروف.. ماذا كنت سأفعل لو لم توجد تلك الظروف؟ على ماذا كنت اتكأت؟

كثيرون هم من يتحججون دوماً بظروفهم، يبحثون عن أي سبب يجعل منهم مظلومي واقعهم.. وأنا كنت من أولئك..

«سأغير الدنيا لوأخذت فرصة أخرى غير تلك، سأغير الكثير لو جاءت تلك الفرصة بعيداً عن هذا الواقع» كنت أقول في نفسي.. وكنت كلما فتشت بداخلي بحثاً عن نفسي، فقدتها..

واستمريت على هذا المنوال إلى أن جاء ذاك اليوم ..

***

كان عملي وقتها قد تغير مكانه، فأضحيت أعمل في إحدى محلات تصليح السيارات في رام الله، وكنت قد أمضيت العامين تقريباً هناك، يومها كان قد طلب مني أن أصلح سيارة بها عطل في المحرك، وبعد أن أتممت الأمر، كان يتوجب علي أن أقوم بالجولة المعتادة بالسيارة للتأكد أن كل الأمور تجري على ما يرام.. وقمت بالأمر وخرجت بها من هناك.. وعند أحد إشارات المرور أمام المقاطعة، كنت قد توقفت حينما احمرت الإشارة، وكان جرار بالسيارة قد فتح فحاولت إغلاقه ريثما تخضر الإشارة، وانشغلت به دون أن أدرك أن الإشارة اخضرت، وقد نبهني صوت مزمار سيارة خلفي، فرفعت رأسي وأمسكت بالمقود، وسقت بها على عجل حينما مرّ مسرعاً من أمامي وصدمته، ولولا رحمة ربه به لكان من المهلكين، إلا أن الصدمة لم تكن قوية ووقع أرضاً..

أوقفت السيارة، وخرجت منها وأسرعت إليه، وكان يقهقه كثيراً « مش هون، مش عهاد الرمزون» ، تملكتني الحيرة ووقفت مدهوشا ولم أعرف ماذا أفعل، تفحصته بعيني وسألته « انت بخير؟» ظل يقهقه قبل أن يمد يده إلي، « لا، مش لازم تقوم، بلاش يكون فيك إشي، شوي

تعمل على الإسعاف» زادت قهقهته، وأوما إليّ أن
ساعده بالنهوض وساعدته، وكان الناس قد بدؤوا بالتجمع
قبل أن يصرخ « بسيطة بسيطة، فش إشي» ثم نظر إلي
وبدأت قهقهته بالاضمحلال قبل أن أقول له «والله ما
كنش قصدي، أنا آسف ما كنتش منتبه» .. زاد تحديقه
ومد يديه إلي وجهي وقد تحسس أعلى جبيني، وكنت
قد ملئت بالسواد الناتج عن عوادم السيارات وزيوتها ثم
نطق:

- توصلني لو سمحت؟
- أه طبعا..

وساعدته بالمشي إلى أن أركبته السيارة، وعدت إلى
مقعدي في سرعة . وسط الجموع التي بدأت بالصراخ
طالبة مني التحرك بالسيارة..

وظل لما يزيد عن خمس دقائق يتفحصني، وأنا أحاول
التركيز في السياقة مهملا نظراته التي بدت غريبة ومربكة
قبل أن يسأل:

- إيش بتشتغل؟
- الزيت إلي على أواعي المفروض حكالك ايش بشتغل
(وضحكت) .. انت إيش بتشتغل؟

- مش شايفني قبل هيك؟

وقد اعدت ناظري إليه وبدا هندامه يدل على شخص أنيق متعلم، لكنني لم أكن قد رأيته سابقاً، وبعد أن أعدت ناظري إليه هززت رأسي نافياً..

- تأخذنيش، بجوز شايفك بس مش منتبه..
- ما سمعتش برواية لا تقرب النساء؟
- لا والله ما إليش عالثقافة يا أخ.. انت اسألني عن طرمبة البنزين، عن الكوشوك، عن الجير.. بتسألني في عن رواية؟!

كنا قد وصلنا وقتها إلى وسط رام الله دون أن أعرف إلى أي مكان كان ينوي الذهاب، وقد أشار إلي

- تنزلني لو سمحت؟
- متأكد فش إشي بوجعك؟ أنا بقول أروح أوصلك للمستشفى نطمن أحسن..
- لا ما في إشي ..

وقفت بالسيارة جانباً، صافحني ثم فتح الباب وخرج مبتعداً، أخذت نفساً قبل أن أدير مقود السيارة إلى اليسار منتظراً السيارة القادمة من الوراء أن تمر، وقبل أن

انحرك كان أحدهم قد طرق على الشباك، كان هو مشيراً إلي بفتح الشباك، فتحته..

- ممكن أشوفك مرة ثانية؟ بعدين؟
- آه طبعا.. بس خوفتني.. في اشي؟
- لا لا.. بكرة ؟
- بعد الستة عشان شغلي؟
- عالسبعة كدام نفس الرمزون؟

كان وقتها، الشخص الأكثر غرابة الذي قد صادفته في حياتي، ليلتها.. لم أستطع النوم على الثامنة مساءً كما اعتدت، وظللت أفكر بما حدث، نظراته إلي كانت غريبة إلى درجة مربكة.. كأنه ما كان يتفحصني إنما كان يتفحص في شيئاً ما..

في اليوم التالي وإذ نهضت، بحثت عن أكثر هندامي ترتيباً لأرتديها عند مقابلته، كانت تلك.. المرة الأولى منذ سنين عديدة أهتم فيها بمظهري، أنّا لي أن أقابله بأناقته تلك وأنا بواقي عوادم السيارات تلك؟!

لنكن واقعيين، إن أكثر ملابسي ترتيبا ما كانت تضاهي ملبسه الأنيق حينما صدمته، رغم أنه لم يرتده لأجل أمر مهم كما كان يبدو..

وقابلته، عند إشارة المرور نفسها كان جالساً.. وبعد أن سلمت عليه وتحدثنا قليلاً سألته:

- ممكن أفهم اشي؟
- اتفضل..
- نظراتك مبارح، ونظرات قبل شوي.. ايش في؟
- لسانك مش مكتشف الموضوع؟
- انا؟!

وقد اخرج هاتفه وعبث به قليلا ثم أعطاني إيا .. وهناك
بدأت الدهشة تتسلل إلى ملامحي..
- مين هاد؟ بشبهني بس مش أنا.. بشبهني كثير..
- لهيك سالتك ما عمركش فكرت تربي لحية وترفع
شعرك..
- وايش دخل هاد برضو؟!
- لإنك رح تصير بتشبهني..الي بالصورة أنا.. بس
بدون لحية.. لهيك استغربت لما شفتك، قديشك بتشبهني.

وقتها لم استطع الرد عليه أكثر، ليست بالمشكلة الكبيرة
أن يخلق أربعين من الشبه ذاته، لكنها ستكون مشكلة ان
تصادفت مع واحد منهم..

وكانت تلك بادئة الدهشات لي فيما سيحدث تباعا، فبعد
قليلين طرح علي أغرب عرض رأيته في حياتي..

ليلتها، لم استطع التفكير فيما قيل لي بشكل جدي، كان
الشيء أقرب إلى المزاح، الخيال، أو الجنون..

كيف لي ان أرضى بأن يأخذ مكاني أحد سواي، وحتى لو
كان مكاني أسفل محركات السيارات؟
وكيف أرضى بأن آخذ مكانه وحتى لو كان يعيش في

الجنة نفسها؟
كيف لي أن أكون انا غيري، ويصبح سواي أنا، وأن أعيش في بقعة هي ليست لي، وأنا أدرك تماماً أنها ليست لي؟!

وأنا لي أن انقمص دور كاتب, وانا الذي ما قرأت كتاباً منذ ما يزيد عن ثمان سنين، وكيف لي أن أدخل جامعته وانا الذي ما أكملت الصف الثامن حتى؟!
وكيف لي ان اتانق بكامل ملابسه وأنا الذي اعتادت ملابسي زيوت السيارات وعوادمها؟
وكيف لي أن أعيش رفاهيته وأنا الذي اعتاد ظهري قسوة الإنبطاح تحت السيارات؟

وهو.. ما الذي يجبره على ترك كل ما يملك وأن يصبح أنا؟
أقد ملّ الحياة كما يقول؟
أيحتاج الهدوء؟
أسيحصل عليه في بيت, يملؤه صراخ أبي؟
أسيعجبه صوت محركات السيارات وهو ملقاً بأسفلها؟
فينا من الشبه ما يكفي لأصبح أنا هو، لكن فينا من الاختلاف ما يكفي ليكشفنا أحدهم، أنا أطول منه قليلاً،

أنحف، بشرتي داكنة أكثر من بشرته، لي زائدة أعلى جفني اليمنى، شعري أكثر كثافةً منه.. لكننا نشبه بعضنا كثيراً، غير أن شارباً ولحية وإطالة شعري كثيراً لن يجعل مني إياه..

إذا فكرت كثيرا يومها.. بأمي، تلك التي لم تملك سواي، ولن تملك.. فرفضت..

وكانت - بعد تفكير قليل - تلك فرصة لا تعوض، وأنا الشاب الذي قد بلغ من العمر عشرين سنة ولم يعش في حياته يوم رفاهية، لم يرتدي بزةً رسمية يومياً، لم يشاهد فيلما في السينما قط، لم يجلس في مطعم طالباً نصف حاجة على الغداء، لم يلعب كرة القدم مع الأصدقاء، لم يتسكع في مقاهي رام الله، لم يحضر حفلاً صاخباً، لم يكلم فتاةً يوماً إلا عن تلف في سيارتها وقد احمرت وجنتاه خجلاً، لم يسافر قط، لم يخرج في عطلة صيفية، لم يفعل شيئاً مما كان يود أن يفعله قبل سن العشرين..

وقد بدأت نفسي توسوس لي نفسي، وتحيي فيها أحلاماً قديمة، وتنبت غيرها، و تعطي ولو بريقاً صغيراً لحياة أخرى غير تلك التي اعتدتها منذ عشرين عاماً مضت..

وفكرت، وأنا الطفل الإضافي في بيتنا الذي جاء بالخطأ،
وما كان له مكانٌ قط، ماذا لو لم يكن هذا مكاني فعلاً،
وقد أهداني الله فرصة أخرى لأعيش حياةً أخرى..

وكان ذلك اليوم هو القشة التي قسمت ظهري، وقد كانت حياتي حياة بعير. فيما سبق، لم تكن الحياة من قبل تعاملني كإنسان. قط، لقد عاملتني معاملة حيوان. روضته على السمع والطاعة دون حتى أن تسمح له بالنهيق..

يومها، وقد ارتفع صوت صراخ والدي صباحها أكثر من المعتاد، وزاد ضجيج محركات السيارات، حتى صاحب المحل بدأ ينتقد أنفه الأمور بالنسبة لي، وزبون غير راض. تذمر أكثر من اللازم، رائحة الزيوت أصبحت بشعة، ولما ذهبت للحمام ورأيت نفسي على المرآة، كانت الزيوت تغطي وجهي أكثر، ورأيت نفسي أغرق بزيت. يقطر من أعلى رويدا رويدا على سنوات لا تنضب أبدا، وتستمر بالمشي، ورأيت نفسي أشيب وأنا تحت سيارة..

وربما، كانت الأمور يومها عادية جداً غير أن نظرتي قد تغيرت..

ولما فرغت من عملي يومها.. كالمته، وكان قد أعطاني رقمه سابقاً، وطلبت أن أقابله، ولما رأيته قلت له أني موافق مهملاً وجه أمي الذي كان يطاردني في الأنحاء..

يومها اتفقنا أن يصبح الجنون واقعاً، وأن اصبح أنا هو بكامل تفاصيله.. وأن أعيش حياته كاملة، وأن ابدأ من هذه اللحظة بتكوين نفسي لأمسي في نهاية المطاف إنساناً آخراً، يشبه كل شيء، إلا ذاته.

لو خلقت أنت في مكان آخر، هل سيتغير الكثير؟ ولو خلق غيرك في مكانك، ماذا كان ليفعل؟!

2016/6/26

بدأنا بالالتقاء مراراً وتكراراً في محاولةٍ لجعلي أشبهه، فلم نحتج كثيراً من الوقت ليبدو هو أنا.. ماذا فيّ ليشقى كي يصبح أنا؟! الزيت الذي يكسو ملابسي؟ شخصي الهادئ؟ صمتي؟

أما هو فكنت أحتاج الكثير لأبدو مثله..

في بادئ الأمر أعطاني روايته لأقرأها، وإلا كيف سأصبح كاتباً لرواية لم أقرأها أبدا؟

احتجت ستة أيامٍ لأنهيها - بعد أن طلبت إجازة لمدة أسبوعين ووافق عليها صاحب المحل بعد إلحاح شديد. وحتى عندما أنهيتها لم أفهم منها الكثير..

أسبوعان كانا كفيلان بتغيير حياتي وقلبها رأساً على عقب، ورغم عدم فهمي للرواية إلا أنني قد فهمت الكثير عن الحياة وجربت أشياء كثيرةً لم أجربها من قبل..

في اليوم الأول طلب مني عدم حلق شعري ولذقني بتاتاً، ثم بدأ يعلمني كيفية التعامل مع الناس، قال لي أن النجاح مربوط بالعامة، قال لي بنصيحة واحدة، لتصبح شخصاً

محبوباً. عليك أن تكذب كثيراً، وأن لا تجعلهم يكتشفون كذباتك.

في اليوم الثاني وبعد أن كنت قد أقنعت والدتي بأنني مضطر للغياب عن البيت مدة أسبوعين لظرف عمل آخر.. اصطحبني لمشاهدة فيلم كان الأول الذي شاهدته في حياتي، وخرجت من قاعة السينما كمن دبت الحياة فيه، وأنا أروي له التفاصيل التي أحببتها، وكان يبتسم كلما قلت له عن تفصيلةٍ ما.. وبعدها بدأت بمرافقته في كل الأوقات، وحتى النوم في الشقة التي كانت لصديقٍ له، وكان يبات فيها ..

في اليوم الثالث بدأت صباحي بسؤاله «عيلتك؟ ليش ما بتنام عندهم؟» فأجابني بأنه اختلق مشكلةً ما وخرج من المنزل، ليكمل هذا الأمر وأعود أنا مكانه، في ذلك اليوم أدركت أن الأمر أصبح جدياً، وأدركت أنه يتوجب علي التعلم بسرعة..

يومها بدأت الاحظ كافة تفاصيله، طريقة لبسه، تمشيطة الشعر، كيفية كلامه في الهاتف، طريقة جلوسه، نظراته..
وحتى طريقة إمساكه بالهاتف، بدأت تقليد كل شيء إلى الدرجة التي جعلتني لا أربط حذائي إذ كان لا يستطيع

ربط حذائه هو..

في اليوم الرابع سألته «ليه بدك هيك؟ ليه بدك تبطل مشهور بعد ما تعبت لوصلت هون؟» وقتها لم يجب لكنني أدركت أن أشياء كثيرة حدثت في حياته، جعلته ما عليه الآن..

في الأيام التالية بدأت أشبهه شيئاً فشيئاً..

بعد أسبوعين، كنت وبكل ضعفٍ فيّ مثله تماماً.. وقد طال شعري بما يكفي، وطال ذقني وقام هو بتصفيفهما، وقص القليل من ذقني، وارتديت ملابساً هي له وكنت أشبهه كثيراً إلى الحد الذي ما ميزت فيه نفسي عنه..

ليلتها.. جلسنا لمدة طويلة، وباح لي بكل شيء.. بكل هذه القصة عن حياته.. وبنهاوند تلك التي ضم قلبُها فكسرته..

وأعطاني أغراضه الشخصية تمهيداً لكل ما سيحدث تباعاً، هاتفه الشخصي، أوراقه، روايته تلك، وسنساله الذي كان يرقد على صدره منذ مدة ليست بالقليلة بتاتاً.. واتفقنا أن تكون هذه الليلة هي ما قبل الأخيرة، وأن نفترق أنا وهو قبل أن يأخذ كل واحد منا حياة الآخر..

***

2016/7/10

كان ذلك اليوم آخر يوم يفترض أن أراه، وكان ما حدث يومها، جعلني أجزم تماماً، أنه مهما حاول أو مهما حاولت، فإنني لن أراه مجدداً.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف بقليل، وفي المكان نفسه، إلى جانب إشارة المرور نفسها، أمام المقاطعة كان يجب أن نلتقي.

كنت يومها في أشد أناقتي، وأنا الذي تدربت جيداً لأرتديه كاملاً، وكان يشبه ما كنت أبدوه في السابق كثيراً، وقد قصر شعره وحلق شاربه وذقنه، مرتدياً ما كنت أرتدي في السابق وقد زاد تلطيخ ملابسه بزيت السيارات بطريقة تجعل الأمر ظاهراً لمن يدقق ولو قليلا، وقد أمسكت يده اليمنى بكيس قد ملئ بحبات الطماطم التي كنت أعود بها إلى البيت كل مدة، كان الفرق الوحيد هو الزائدة التي علت عيني اليمنى، وكنت أدرك أن أمي، تلك التي تعرف تفاصيلي كاملاً قادرة على كشف الأمر بنظرة واحدة، وظل، لما يزيد عن عشر دقائق يقنعني أنه قادر على تقمص الشخصية كاملة وأن أمي - التي ستصبح أمه

بعض لحظات- لن تكتشف شيئاً..

وبعد وقت، أذعنت للأمر، وأيقنت أنه قد توجب علي الآن إكمال الأمر إلى نهايته..

ظل يردد مطولاً «ايش ما صار، ما تقرب من نهاوند.. ما حدش بعرف سرها غيري.. تقربش شو ما صار».

وكان يجب أن نتودع، وأدركت للمرة الأولى في حياتي، أنني الآن أودع صديقي الأول، وما كان لي من قبل صديقاً سواه..

غير أن ما حدث بعدها جعلني أدرك أن ذلك كان الوداع الأخير..

فبعد أن تودعنا، وقطع الطريق دون أن يلتفت إلى إشارة المرور، صرخت فيه بالتريث، ولما سمعني أدار وجهه إلي مبتسماً.. ثم سحقت حبات الطماطم أرضاً وسحق وجه..

سيارة جيب زرقاء

أوصلت أحدهم إلى الحياة الأخرى..

وكنت أرى أمامي ماضياً آخر قد انسحق أمام عيني، وما استطعت أن أقترب منه، لقد خذلتني نفسي وقتها، وكل القوة التي كنت أتظاهر بها تلاشت أمام جثته، ووقفت بعيداً، غير مدرك لما حدث وما يحدث وما سيحدث..

ولما مت، كنت أرى كل شيء من بعيد..

العامة الذين تجمعوا حول الحادث، صاحب السيارة الذي قد جن جنونه خوفاً، لا على الجثة الملقاة أرضاً، وإنما على ما سيحدث به تباعاً..

وتابعت مسير الجثة تلك، من نقلها إلى المشفى الحكومي الذي ما ألقى لها بالاً، وكان يبدو - من ملابسها - أن لا أحد سيكترث كثيراً لما لقت..

كانت الجنازة التي اتسعت لأربعة عشر رجلاً من الأحياء جميعهم.. سواه، انطلقت من المسجد لتزفه مأواه الأخير، ولتزيحه عن الدنيا أو لتزيح عبأ الدنيا عن كاهليه، ولتجعل من هذه الحياة أما قد فقدت للتو أشجع ابنائها وأكثرهم حيرة وأطولهم حلما.

ورأيتهم يقومون بدفني بعد أن حل أمر موتي بفنجان قهوة ودية. ستدفع لوالدي تباعاً، وستحدث من التغيير

في حياته ما لم أستطع أنا تغييره في حياتي، كان موتي بمثابة حياة أخرى لوالدي الذي ما رأيت على عينيه دمعة وأنا ملقاً أمامه.. ولما انقضت ثلاثة أيام من موتي، كان قد بدأ يبحث عن محل يستأجره ليفتتح متجراً صغيراً بديتي..

أما أمي فكيف كان لها أن لا تبكي؟ وكيف كان بإمكانها أن تكون أكثر قوة؟
وأقل عاطفة وأعظم أمومة ؟
وكيف لمارقها أن تكون هادئة جدا؟
وعديمة الجدوى كما سياسين وطنه؟
وكما أرملة لشهيد آخر؟!
أيهم قد تبكي عليه أكثر؟
وأيهم قد يجعل قلبها يتشردق وعينيها ينكمشان على نفسيهما؟

لقد كانت هادئة تماما، كما وطن ارتحل عنه أهله، وكما مخيم عاد أهله إلى حيفا للتو، وكما آخر رصاصة دخلت بقلب إحداهن، لم تبكي..

أما أخوتي، الذين اعتبروني زائدا لمدة اثنين وعشرين سنة فقد بكو في بادئ الأمر، إلا أنهم في اليوم الثاني قد

ضاقوا ذرعاً من الوقت الذي قد أمضوه بلا فائدة في تلقي التعازي بوفاتي..

التعازي القليلة..

أما صاحب محل السيارات الذي كنت أعمل به، فكانت واقعة موتي الأكثر تأثيراً عليه بين العامة، فقد احتاج إلى أسبوع ونصف للعثور على فتى آخر يشغل مكاني، وكان يحتاج إلى شهرين على الأقل لتدريبه..

بعد أربعة أيام من موتي، لم يكن أحدهم يكاد يتذكر أن الأمر قد حدث إلا أمي، التي ظلت لفترة طويلة جداً، تغسل ملابسي كاملة، وكنت أراها تعيد تعليقها على الحبل خارج البيت مراراً وتكراراً، وكانت على الساعة السادسة مساءً في كل ليلة، تفتح باب البيت وتجلس خارجه، كما اعتادت لأكثر من ثماني سنين كانت تنتظر عودتي إلى البيت.. لكنني هذه المرة أطلت الغياب..

***

- مات؟

- آه..

- معاذ جهاد مات؟!

- اه

- انت مدرك إنك بتحكي هاد الحكي لصديق معاذ جهاد؟

- ما كنش صديقك لحالك.. كان صديقي أنا كمان..

ولما رأيت الأمر قد أثقل عليه، وكنت أظنه يحتاج إلى بعضٍ من الراحة، أوقفت الحديث وبدأت أجعل عيني تجولان في الأرجاء بعيداً عن عينيه، وأنا الذي جئت إليه بخبر وفاةِ صديقٍ له، وأنا الذي حللت مكانه..

لم يكن من السهل أن أقول ذلك، لكنه كان يتوجب علي أن أقوله، وكنت أدرك تماماً أن هذه اللحظة ستأتي لا محالة، ورأيت عينيه تحاولان التماسك وما استطاعتا..

معاذ جهاد.. الذي ظل لفترة طويلةٍ جداً يخسر الأصدقاء واحداً تلو الآخر، ويقلب عينيه يمنة ويسرة، ويدور محاولاً الوصول إلى الحقيقة، أو إلى حلمٍ راوده، ويشقى محاولاً ترسيخ اسمه في الأرجاء، حتى إذا ما مات كان اسماً لا رقماً، لم يكن يخال للحظةٍ أن أربعة عشر رجلا

. فقط هم من سيحضرون جنازته، في يوم أربعاء دون أن يعرف منهم أحداً، ودون حتى أن يعرفونه هم..

كانت نهايته أشبه بفيلم سينيمائي رديء، لم يستطع مخرجوه أن يكملوه فأنهوه بسرعة..

وربما كان موته بهذه الطريقة كان الأقل تأثيراً على العائلتين، فعائلة قد توفي ابنها دون أن تدرك ذلك، وأخرى تظن أن ابنها قد توفي دون أن تدرك انه ما زال على قيد الحياة..

الغريب في الأمر، أنه توفي في نفس المكان الذي وقع فيه بالحب.. لأكون صادقاً، سيكون شيئاً أكثر غرابة لو أنه لم يمت هناك..

أمام إشارة المرور نفسها، في المكان نفسه الذي كان قد التقى بها فيه، قد توفي دعساً بسيارة..

كانت هي تخاف من السيارات كثيراً، كانت تمسك بيده كلما أرادا أن يقطعا طريقاً ما، ولما تركته.. صار يكره السيارات، الطرق، الرصيف، وإشارات المرور.. وحين مات، مات دهساً، لم يكن حادث سير فقط، كان حدث ثقة..

الثقة التي ملأت قلبه حبها، حتى بدأ يفرغ الدنيا من قلبه شيئاً فشيئاً حتى قد تملكته هي، ولما تركته تركته فارغاً..

ولطالما فكرت.. ماذا كان سيحدث لوالديه، لأصدقائه، للذين أحبوه، لو أنهم أدركوا أنه قد توفي؟

وكنت أفكر أكثر، ماذا كان سيحدث لها لو أدركت هي موته وقتها؟ الغريب في الأمر، أن الوفاة موجعة كثيراً بالنسبة لنا، لأننا ندرك أننا ما عاد باستطاعتنا الحديث مع الميت، البوح له بأسرارنا، ملامسة أصابعه، احتضانه، تقبيله، مرافقته إلى مكان ما، احتساء فنجان قهوة معه، الضحك على نكتة هو قائلها، قطع الطريق سوياً، مشاهدة فيلم.. أو حتى الذهاب للتأرجح معه، مع أننا في الحياة ما عدنا نمارس هذه الأمور معه أصلاً، وأننا قد افترقنا منذ مدة طويلة!!

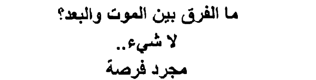
لماذا نصرُّ إذاً على الابتعاد وعدم الحديث، مع أننا ندرك أن الموت قد يخطف أحدهم فجاة، ولن نستطيع الحديث معه بعدها؟! ولماذا إذا ما فعلنا ذلك، فأن الأمر يؤلمان بفقدانه، ونحن الذين إذا ظل جانبنا ما استفدنا من وجوده شيئاً؟! نحن قادرين على التماسك لدهر طويل جداً دون

الحديث معه، لكننا ننكسر إذا ما ابتلعته الأرض..

لذا رجاء .. عندما تتخاصمون مع أحدهم - صديق، حبيب، أم، أخت، معلم، أو أياً كان - لا تجعلوا الأمر يطول كثيراً، إن تشاجرتم فابتعدوا لمدة لا تزيد عن نصف ساعة، ثم ابدؤوا بتذكر الأشياء الجميلة التي حدثت بينكم، أية ضحكة، أية جملة، أي موقف، أي شيء يجعلكم تبتسمون.. ثم عودوا وكأن الأمر لم يحدث.. لا تنتظروا الفقدان لتذكر محاسن الأشخاص..

الوقت - بعيداً عن الشخص الذي تحب - لا يصلح شيئاً، الوقت يفسد الأشياء جميعها، الوقت لا ينسي شيئاً، وإنما يجعل قلبك يابسا متلبدا، ويرديك جثة على قيد الحياة..

وإنها لأكبر مهزلة تحدث، أن يحل أحدهم مكان أحد آخر، وتكمل الحياة هكذا..


ما الفرق بين الموت والبعد؟
لا شيء..
مجرد فرصة

***

بعد عدة أيام من تلك الحادثة عدت إلى البيت، بيت معاذ جهاد، ودون أن تكملني أمي -أمه - فتحت لي الباب، وكنت اعرف تفاصيل البيت كاملاً، فصعدت الدرج إلى غرفتي..

ليلتها نادى علي أبي -أبوه - وجلس يناقشني بالمشاكل التي حدثت في الآونة الأخيرة، وأنا ظللت صامتا لفترة طويلة قبل أن أعتذر له على ما حدث، ولملمت نفسي للهرب والصعود إلى غرفتي، وقد شعرت وقتها أنني اضعف من أن أستطيع تقمص دوره كاملاً..

لطفاء هم، عائلة صغيرة يأتيها قوتها يومياً، يتشاجرون أحيانا، يضحكون أحيانا أخرى.. لكنهم لطفاء .. وكنت كلما جلست معهم أشعر بالسعادة وأنا الذي ما كان مكاني هذا يوماً..

في الأيام الأولى كان الأمر غريباً جداً علي وعليهم ، أمي -أمه - بدت عليها علامات الاستغراب من تصرفاتي، التي قالت لم تعتدها من قبل كما قالت.. تحضير الفطور في الصباح، ترتيب غرفتي ، رمي النفايات خارجاً..

وطالما رددت لها، اعتبريني شخصاً آخراً من اليوم

فساعدا..

.بعد مدة قررت تكملة ما كان ينوي عمله معاذ، وبدأت التحضير للرواية.. وجئت إليك كما أوصاني..

أحسست أن ينال وقتها كان يحتاج إلى أسبوعين أخريين ليستوعب كل ما حدث..

***

بعد أن حدث كل ذلك وبحث لينال بكل شيء، عدت للبيت كمن عادت له ذاكرته للتو، وأحسست للحظة أنني كنت قد بدأت أتقمص الشخصية ونسيت حدود نفسي..

وقررت يومها أنه وإذ وقعت الواقعة وصرت أنا هنا، أن أتقمص الشخصية كاملة بكامل تفاصيل معاذ الذي رحل وتركني خليفة له..

هو علمني كيف أقنع العامة أنني مثقف، لم يعلمني أن أصبح مثقفاً حقاً..

يومها، أمسكت لأول مرة - منذ عشر سنين تقريباً - كتاباً بيدي غير الذين كنت أوقعهم، وبدأت أقرأ فيه، فكيف بشبه أمي أن يقنع العامة بثقافته؟!

وإن الأمر قد شغلني لأيامٍ كثيرةٍ جداً، كيف بإمكاني أنا ذلك الشاب الذي لم يكمل الصف الثامن ولم يقرأ في حياته روايةً من قبل أن يقنع كل هؤلاء بثقافته المزعومة، وأن يصبح في ظرف عدة أيام كاتباً يتلا اسمه في الأرجاء كثيراً...

المشكلة الأكبر أن لا أحد يقف أمام العاصفة بتاتاً، إما أن

يسيروا مع التيار، أو يتجنبوه تماماً، لكنهم لا يواجهونه بشكل جاد..

وإنني كلما كنت أخطئ في أمرٍ ثقافي - معلومة أو فكرة- أؤول الأمر إلى غير ما قصدت، وأصبح فكرة عظيمة برأي القراء.. مرات كثيرة حدث الأمر، ولم أضطر إلى تصليح الجملة، أخطاء الكتاب أفكار عظيمة..

وفكرت مراراً، ماذا لو كانت كثيرة هي الأشياء المصطنعة في حياتنا؟ ماذا لو اتضح في نهاية الأمر، أن الأمور التي نحبها - كل الأمور - ما هي إلا بلاستيك قد أحسن صنعه صانعوه..

فكم من كاتب يتضح في نهاية الأمر أن نصوصه مسروقة، أو أنك إذا ما التقيت به كان مختلفاً عن ما هيَّأ لك نفسه، وكم من مغنٍ إذا ما أمامنا غنى كان صوته أقل جمالاً من ما زرع في داخلنا، كم من شيخ مسجد وجدناه بعد فترةٍ لصاً أو شيخ سلطة، وكم منهم كانوا أصدقاء لنا حسبناهم مثاليين إلى درجة مطلقة ولن يؤذوننا أبدا، ثم اتضح في نهاية النص أن لا أحد قد آذانا كما فعلوا، وماذا لو كشف الغطاء، ووجدنا أن رئيس دولة ما هو إلا صورةٍ يرضاها لا تشبهه، وما هو إلا أحدهم جاء ليدمر البلاد لاحقاً! وماذا

يثبت لنا أن الأشياء حقيقية بعد؟! وأن المهرج سعيدٌ دائماً
وأن الراقصة التي تضحك ملء ثغرها في الأوقات
جميعاً، وماذا لو اتضح في النهاية أننا كلنا ممثلون
بالفطرة؟

وأن التناقضات تملأ حياتنا..

***

عندما رأيتها لثاني مرة، كان كل شيءٍ قد تغير فيَّ، وكانت الأشياء تجعلني أكثر بلاهةً وأقل تماسكاً، بدأت بإهمال العامة وملاحظة أدق التفاصيل فيها، انحناءات عنقها، حبات النمش التي تناثرت على وجنتيها، وشعر رأسها المبالغ في سواده، أنفها المخلوق تحفة فنية، رمش العيون الذي وكأنه رتب رمشاً رمشاً أثناء الخلق كل رمش في مكانه، والعينين الواسعتين وكنت أخالهما تتسعان لي، والذي لم يرَ عينيها الزرقاوتين، يعجبه البحر..

وكانت فاتنة، ولولا إذ أنها كانت بعيدةً عني قليلاً ووضعت يدها على شفتيها بعد أن أكملت نصف ضحكتها، لكنت قد نسيت التنفس واختنقت قبل أن تكمل نصفها الباقي..

وكنت أسأل، هل بقيت امرأةٌ على هذا الكوكب يتمنى بحر

ماذا لو تكون رموشها على شاطئه أو يكون هو بحرها؟!
أو يكون عنقها بتفاصيله كتفاصيل بيتٍ قديم تركه أهله
قبل النكبة وفروا، وما استحوذ الجند عليه؟
وكانت حدود خصرها أصغر من حدود دولتنا..

وقد استطاعت لمراتٍ عدةٍ الإمساك بعينيها تنظران إلي،
وأنا الذي تلتفت إليه كل العيون في آخر فترة، ولم تكن
غير عينيها تجعلانني فخوراً بما أنا عليه الآن، وأنا الذي
ما كلمتها من قبل إلا « عفواً، إيش اسمك؟»..

وإنني قد فكرت لمراتٍ كثيرةٍ أن أقوم من مجلسي
دون أدنى مبررٍ وأن أخاطبها.. لكن ما صرت عليه من
بلاستيكية النفس وتظاهرها بالقوة، لم تجعلاني أفعل
شيئاً أكثر من النظر إليها..

***

الساعة الحادية عشر مساء، كنت أسمع خطوات أمي تتجه إلي، كنت شبه نائم، وتظاهرت بالنوم أكثر، رفعت الغطاء، وغطت به ما ظهر من قدمي، أطفأت النور وقبل أن احذرها.. أغلقت الباب..

وقد وضع قدماً على أخرى بعدما أشعل سيجارته..

- صرت معجباً بإحداهن؟

- لا أعرف.. لا اظن ذلك.. ربما..

- لا تنسَ أنك مجرد لا شيء، هذا ليس الواقع الذي تعيش فيه بتاتاً، إنه أشبه بالحلم بالنسبة إليك.

- إنه الواقع.

- أنت لست معاذ..

- لقد أصبحت معاذ جهاد الآن، أنا هو، وهو ميت.

- لكنك تعرف أنك لست حقيقياً بتاتاً.

- هم لا يعرفون ذلك.

- ليس المهم ما يعرفونه، المهم ما تعرفه أنت..

وقد صمت، وأدركت صدق قوله فأكمل:

- أأعجبتك؟

- لا أعرف.

ـ ما اسمها؟

ـ لا اعرف.

ـ أوليس مهماً أيضاً؟ ماذا تعرف عنها؟ ماذا تحب؟ من أيّ عائلةٍ هي؟ ما أصولها؟ أتجيد الطهي؟ أتحب القراءة؟ أهي ذكية أم غبية؟ أمنفتحة عن العادات والتقاليد أم مغلقة على نفسها؟ أقوية هي أو ضعيفة؟ ماذا تعرف؟

ـ اعرف أنني أحبها..

كان الشعور الذي قد حل بي وقتها الأقوى منذ سنين طويلة، وإنني لم أشعر بذلك من قبل، وكيف لأحدهم بعاشر السيارات طيلة الوقت أن يكون في وقته متسع لعشق إحداهن، وكيف لأحدهم يرى امرأةً بكل تلك الرزانة ولا يقع في عشقها، لم أكن أدرك أكان ذلك حبا أم محض تهيؤات، لكنني كنت أدرك أن امرأة كتلك لن تكرر مرتين...

***

في السابعة صباحاً، استيقظت على هاتفي ـ الذي كان هاتفه من قبل- وكان يدوي منذ فترة، التقطته وحاولت فتح عيني، وتطلعت إلى واجهته.. وكان اسمها « نهاوند».

وجاء ذلك الصوت من بعيد محذراً إياي: -« ايش ما صار تجاوبش، هاي مخادعة كثير، أنا كشفت سرها.. بس مش رح يصدقوني.. اعمل ايش بدك بس تقربش منها».

تركت الهاتف يعوي جانباً، نهضت وغسلت عيني، وكان لا يزال يصرخ بي، لا أعرف لماذا قد خالفت وصيته وفقأت إحدى عينيه مجيباً:_

- مرحبا.

وكانت تبكي:

- نهاوند.. اسمعيني، إيش في؟
- ما فش اشي.. ممكن أشوفك؟
- ما هو اتفقنا إن ما نشوفش بعض..
- طيب زي ما بدك..

وأغلقت الهاتف، ورق قلبي واتصلت بها مجدداً:

ـ على الوحدة؟
ـ بحديقة سيادته؟
ـ بحديقة سيادته..

تذ حذرني من قبل قائلاً «في النهاية، رح ترجعلك، ما حدش حبها كد ما أنا حبيتها، كلهم كانوا بدهم إياها قوية، وانا الي حبيت ضعفها، كلهم كانوا بدهم إياها تضحك وأنا بس تحملت عياطها لساعات كثيرة، جميعهم كانوا حابين يبوسوها، وأنا بس الي كنت مستعد أكمل طول حياتي وهي بحضني. بس لازم أحذرك، في سر عنها ما حدش عرفه غيري.. لهيك شو ما صار، تقبلش انها ترجع، كل ما رجعت رح تقتل اشي فيك»..

***

الساعة 12:40 – شارع الإرسال

كنت لا أزال قابعاً داخل حدود العينين الواسعتين اللتين سجنت فيهما وما حاولت الفرار. وفكرت فيها مراراً وتكراراً، وكلما أغمضت عيني داهمتني صورتها، واعتقلت شيئاً في، وكنت كالأبله أبتسم في وجوه المارة دون أن أدرك في بادئ الأمر، أنهم يستغربون من هذا الفتى الذي وقع في الحب، أو على ما يبدو أنه الحب..

وفكرت.. ربما لأنني لم أعاشر نساء قط من قبل، وكانت تلك حورية رأيتها تسقط علي من الجنة. ولكن.. في الأيام القليلة الخاوية التي عشت فيها هذه الحياة الجديدة، قد رافقت من الفتيات اللواتي كن على معرفة به..

إلا أنها مختلفة، بنصف ضحكتها تلك، بتسريحة الشعر البسيطة، بمساحيق وجهها، بحركات يديها، بالنمش على خدها، وتمنيت للحظة لو أنني أخلق في الحياة اللاحقة نمشة ها هناك..

على كتفي الأيمن، وصوت جاء باسمه «معاذ» فأدرت وجهي.. وكانت هي، وتلبدت وأنا أدير بكامل جسدي إليها، وأقف دون حراك ودون أدنى معرفة. مني لما قد

أفعل الآن .. وأعانني الله فنطقت:

ـ أهلا.. كيفك؟

ـ تمام الحمد لله كيفك انت؟

ـ الحمد لله

وظلت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً، وتلبدت أنا أكثر، وتاهت الأفكار في رأسي، وضعت في عينيها مرةً أخرى، وكنت أظن انها تنجيني في الوقت الذي كانت تضيعني أكثر..

متمتمة « إيش رأيك نشرب شاي المرة؟ بمحل قريب مون.. على ذوقي».

وما كان الأمر يحتمل الرفض بتاتاً، امرأة كتلك لا يقال لها « لا»، امرأة كتلك ستكون بكامل وعيك إن قلت لها «أحبك» عوضاً عن « مرحبا»..

لمّا جلسنا في مقهى ما، وتذكرت موعدي ذاك، إلا أنها بكلمتين فقط قد أنستنيه إياه..

هادئا متماسكا كنت، محاولاً التحديق في عينيها بكامل شغفي وبكامل نزقي، وحدقت بي، وأطلنا التحديق، وابتسمت .. ولولا أن جاء حامل الشاي لما صحوت..

لم أتجرأ أن أسألها عن اسمها بتاتاً، ففي المرة السابقة، عندما أرادت توقيع الرواية أحسست بالذنب عندما فعلتْ ذلك، وقلت في نفسي أنه يجدر بها أن تبوح به، لكنها وطيلة الوقت لم تفعل..

- لساتك لابس هاد السنسال بشوف..

لم أعرف مغزى سؤالها لحظتها، فتبسمت دون أن أجيب، وظللنا لفترة طويلة جداً نتبادل النظرات، وأنا لا أفهم ما يحدث بتاتاً، لكنني كنت استمتع بالأمر..

- رح تضل هادي كثير؟ مش رح نحكي؟
- ضروري نحكي؟
- لا مش ضروري.. خلينا صافنين ببعض..

قالتها ضاحكة، ولم تدرك وقتها أن ذلك أجمل ما يمكن أن يحدث، وأجمل ما حدث.. واستمرينا على هذا النحو لما يزيد عن نصف ساعة دون النقاش في أي حديث، ثم خرجنا من هناك، وطلبت مني إيصالها إلى موقف للسيارات، وأوصلتها، ولما وصلنا استطعت لأول مرة تجميع عدة كلمات دون التفكير بالأمر كثيراً..

ـ ممكن أرجع اشوفك؟
ـ أكيد معاذ..
رضحكت.

***

حينما وصلت البيت، أحسست بشعور الذي قد صحى من
حلمه فجأة وما كان يبغي أن يصحو منه بتاتاً.
رقتها، أعدت الذاكرة مرارا وتكرارا،
وأعدت المشهد ألف مرة،
وأنا أراها تضرب على كتفي لتوقفني،
تبتسم،
أراها تحملق في،
تحتسي الشاي مرة وثانية وثالثة..
وتمنيت لو أن كأس الشاي ذاك لا ينتهي،
وتمنيت أن يطول اليوم إلى الأبد،
وأن يعاد في دائرة إلى مالانهاية.
بدأ اليوم برؤيتها، أوصلها إلى موقف السيارات، ثم تعود
توقفني..
تحتسي الشاي،
أوصلها إلى موقف السيارات، ثم تعود توقفني..

وتمنيت لو أن الشارع من المقهى إلى الموقف ذاك يطول أكثر وأكثر..

وعدت كالأبله أراقص مخدتي في أنحاء البيت وأقبل الأشياء جميعها، وأضحك بأعلى صوتي.. وكان ذلك الشعور الذي تفرد فيّ الأجمل منذ سنين طويلة، وأنا الذي لم أذق شعوراً يشبهه من قبل..

وتبسمت، وعجبت لأمر هذه الدنيا التي توقظ أحدهم من أسفل السيارات، وتعليه إلى عيني امرأة..

وكان الأمر يبدو وكأنها الامرأة التي سقطت من الجنة سهواً..

وكانت تلك التي لم يخلق مثلها في البلاد، وكان جمالها لا يبقي ولا يذر..

وكنت أبدو كالذي جن من الحب..

وإنني لما خشيت التعمق في الأمر أكثر دعيت «ربي، إني قد مسني الحب، وأنت أرحم الرحمين».

وأدركت وقتها أنني مقبلٌ على مرحلة آخرى مغايرة تماماً لما عشته في الأيام الخالية، وأن عاصفة ما قد ضربت هذا القلب، وأنه علي التشبث بكل ما أوتيت من قوة..

إلا أنني تذكرت لاحقاً أنني قد أخلفت موعداً مع نهاوند،
الفتاة التي كان يحبها معاذ من قبل..

التقطت الهاتف، وبحثت عن اسمها واتصلت، ورن ثلاث
رنات قبل أن تجب..

ـ مساء الخير..

ـ أهلا معاذ

ـ آسف.. كنت بدي أعتذر عن اليوم..

ـ ليش إيش ماله؟ كان يوم حلو.. والشاي بميرمية أزكى
بكثير..

كنت يومها قد وضعت ورقةً على الباب كتب فيها «لا
تغلق الباب رجاءً» بعدما ضقت ذرعاً منه..

وحاولت،
حاولت بقدر ما استطعت..
لكن الباب كان قد أُغلق..

جلس على الكرسي واضعاً قدما فوق الأخرى، وقد أشعل سيجارته وبدأ بالتقهقه، علت قهقهاته في الأرجاء.. وقد حاولت -عاجزاً- إغلاق إذنيّ بيديّ محاولاً منع صوته أن يتسرب فيّ أكثر..

- لنحاول فهم الأمر، كنتَ معجباً بإحداهن، وذهبت لتقابل أخرى، فقابلت الأولى، ونسيت الثانية.. ثم اتضح بعد ذلك أن الاثنتين واحدة..

وعاد إلى قهقهته مجددا .. محاولاً إسكاته قلت:

- أرجوك، عد مرة أخرى.. ليس اليوم، أتوسل إليك..

وقف تاركاً الكرسي، وأنا مستلقٍ على السرير واقترب مني وهمس..

- أنا متأسف..

ثم علا صوته..

- لنراجع الأمر.. اتفق معك أن تصبح هو، وأن تصبح أمه أمك، وأبوه أباك، وحتى إخوته إخوتك، ولكن قال لك.. لا تقترب منها.. لقد حذرك، وأنت ماذا فعلت؟!
أرجوك كفى.. أريد النوم..
- للأسف، تعرف .. معي من الوقت حتى يطلع الفجر..

أي (ونظر إلى ساعته) ما يقرب الثلاث ساعات..

ـ لنراجع الأمر؟

ـ أرجوك.. فيّ ما فيَ..

ـ قلت لك أيها الأبله.. أنت لست إلا نسخة رديئة منك..
أنت محض وهم، ممثل ثانوي استعيض به عن الأصلي،
أنت نسخة مقلدة.. مجردة..

وظلّ طيلة الوقت يذكرني باللعنة التي حلت بي.. مكررا: « كنت معجباً بإحداهن، وذهبت لتقابل أخرى، فقابلت الأولى ونسيت الثانية.. ثم اتضح بعد ذلك أن الاثنتين واحدة..».

الفصل الخامس
قطف التفاحة

لماذا قطفت التفاحة؟! لقد حذروك كثيراً من الأمر..

الذين آلو في نهاية الأمر إلى الدرك الأسفل من النار، بدأت معصيتهم بكذبة، سرقة، ثم بدأ الأمر يتطور تدريجيا حتى وصلوا إليه..

الحب يشبه ذلك كثيرا..

ستضع حدودا في بداية الأمر، لن تكون هذه العلاقة أكثر من صداقة، «هذا شيء مؤكد وأنا قوي وأستطيع السيطرة، سيكون كل شيء على ما يرام» تقول في نفسك..

في المقابلة الأولى ستحاول الإلتزام بالمبدأ، صداقة فقط..

في المرة الثانية ستقول لنفسك أنها صداقة جدية ليست أكثر...

في الثالثة تظن أن الصداقة أصبحت قوية ولم تصبح شيئا آخرا...

في الرابعة تقول لنفسك «حسنا، هذا لا يسمى الحب، نحن محض صديقان قريبان من بعضنا».

في المرة الخامسة وبعد أن تعتادا على مغازلة بعضكما والمداعبة بأطراف الأصابع، والتكلم حتى الثانية ليلا، والهروب من كل شيء إلى بعضكما، وإظهار الغيرة كثيرا، والغضب من أتفه الأمور، والنظرات الجميلة،

ضحكات الاجمل.. بعد كل هذه التفاصيل ستقول أنكما صديقان حميمان لا أكثر.. عندما تخسر الشخص إلى الأبد، وقتها تقول أنه كان حبا..

وهكذا كان الأمر.. فكرت لفترة طويلة جداً عن نصائحه، لكن المشكلة أننا في تلك اللحظات لا نحتاج إلى النصائح بقدر ما نحتاج إلى التجربة..

«إنها ليست شريرةً كما قيل لي، أنا متأكدٌ من الأمر» قلت في نفسي، إن عيوناً كهذه لا يمكن أن تكون إلا عيون ملاك، الشياطيين لا تملك ضحكات جميلة ولا عيوناً فاتنة..

وظللت لأيامٍ عديدة أحاول التخلص من الأمر رغم إيماني -وقتها- استحالة كونها بما وصفه لي معاذ من قبل، لكنني في كل الحالات وعدته وعليّ أن أفي..

واتفقت مع نفسي على الأمر، لن أخاطبها، لن أعود لألتقيها، سأنسى كل شيء عنها، وحتى إذا حاولت هي ذلك سأوقفها.. وبعد أن قررت ذلك بدقيقتين، كان هاتفي لا يصيح بي، وكانت هي ودون وعي أجبت..

- اشتقتلك..

وكانت تلك الكلمة كافية لأخلف كل المعاهدات التي عاهدتها مع نفسي..

اتفقنا في بادئ الأمر أن أراها، أوضحت لها أنني أشتاقها أنا أيضاً، لكن ما حدث في الماضي يجعلني أقرر أن يبقى ما بيننا محض صداقة لا أكثر..

عندما كنت ألتقيها في كل مرة.. كنت أشعر أنها المرة الأولى التي أراها فيها، وكنت أشعر أنني في كل مرة أولد من جديد. [إنها ضحكة طفلة ولدت البارحة ولم تعرف من الدنيا القسوة، وفي قلبها العتمة كرجل عاش مئتين سنة في الحروب!]

كيف تعامل فتاة بطريقة جيدة؟ عاملها كطفلة.

في المرات الأولى، كانت الأشياء جامدة.. لكن واحدةً كتلك تتمنى الجمادات لو تتحرك وتراقصها..

لقد كانت ثوريةً إلى حد يجعلك تحبها من جديد في كل مرة، كنت كلما قابلتها أشعر أن محض وجودي معها عملٌ وطني أستحق عليه نجمة ما تعلق على قلبي، حديثها -الذي يتشعب كثيراً إلى أن يصل إلى موضوع وطني، أم شهيد، أم أسير، مخيم أو أي شيء - كان يأسرني، وكنت أراني خائناً للوطن بصحراء عقلي القاحلة، التي

لم تكن تعرف من الشهداء إلا محمد الدرة، ومن الأسرى سوى البرغوثي..

كانت امرأة تصلح لأن تكون قائدة جيش في معركة على الأقل، وكنت أهزم دوماً قبل أن تبدأ معاركنا..

بدأ الأمر بعينيها التين كانتا تقولان لي بأنها تحن إلى صفد، وكنت أرى عينيها صفد وأراني لاجئاً، وإنني كلما نظرت إليها شممت رائحة كروم الزيتون، وكلما أغلقت عينيها، ضاقت بي جدران المخيم..

وبدأ الأمر ينمو عندما ذهبنا للتأرجح أول مرة، وكان شعرها الذي كلما طار رأيت نفسي وإياها بجانب البحر..

وبدأت بالتعلق بها كثيراً.. وأحسست لأول مرة أن هناك أشياء أخرى على هذا الكوكب الغير صالح للحياة بعيداً عن عوادم وإطارات السيارات، ومن وقتها بدأت بالتفكير بأشياء غريبة قد تجعلها منبهرة فيّ، وأنا الذي ليس فيّ شيء يستحق الدهشة..

حاولت جعل العينين - التي أحسست للحظة بأنهما لا يتوقفان عن البكاء ليلاً - تضحكان بكامل اتساعهما..

لا يبدأ اليوم بتاتا حينما تنتصف الليلة، يبدأ اليوم حين أراك. والديوك كاذبة، الفجر يبدأ بعد صباح الخير منك..

***

صباحا.. كان باب بيت العجوز الذي لم يزرها أحد منذ فترة طويلة جدا، قد طرق لمرات عدة.. فاتحة الباب، وهي تتكئ على عصا لها وتقول:

- مين؟ البلدية؟

وكنا نحن الطارقين فأجبت «لا يا حجة.. افتحيلنا لو سمحت».

وفتحت الباب وتفحصتنا من أعلانا إلى أسفلنا ثم قالت:

- أهلا يا ستي.. تفضلوا..

وقد أمسكت بيدها شبه مصافح..

- يا حجة جايين أنا وهالصبية الحلوة، حابين نقعد عدرج البيت تاعك - وكان للبيت درج طويل يمتد أمامه من تلك الأدراج المعلقة التي ازدانت بقواوير من ورد وضعت على جنبه - إذا بتمانعيش طبعاً..

- لا يا ستي.. أهلا وسهلا..

متحسسة بيدها وجه نهاوند ضاحكة..
- أعملكم شاي؟
- لا يا حجة.. بدناش نغلبك (ردت نهاوند) ..
- جايين عبيتي وما أعمللكمش شاي؟ قليلين أصل إحنا يا ستي؟
- حاشاك يا حجة.

نت لها وتبسمت فردت نهاوند ..

- طب اسمعي يما.. انت أقعدي هان وأنا بعمل شاي بس دليني عالمطبخ..

ساعدت العجوز في الجلوس إذ دخلت نهاوند إلى المطبخ وتمتمت:

- الله يخليكم لبعض يا خالتي.. زمان إلكم متجوزين؟

ولم أعرف بماذا أجيب، فتمتمت قليلا ثم قلت..

- اه إلنا فترة يا حجة..
- دير بالك عليها منيح وحطها في عينيك.. ماشالله عنها فلقة قمر..
- في عيني يا حجة..
- النسوان بدهن الي يدللهن.. بس تنساش إنك انت الزلمة..

وقد ضحكت كثيرا قبل أن تأتي نهاوند بالشاي.. تناولته منها ووضعته أرضا.. ثم قلت..

- والله أهلين يا حجة..

- اهلين يما..

تطلعت إلي نهاوند هامسة قائلة « ما حطيتش سكر.. عشان الحجة.. بلاش يكون معها إشي لا سمح الله..

وكنت لا أشرب الشاي من دون سكر فسألتها :

- متأكدة؟ ذوقي كاستي..

أمسكت بكوب الشاي وقد ارتشفت منه قليلا ..

- فش فيه سكر..

- هلأ صار فيه..

ولما شربت الشاي بدون سكر،
ذابت شفتاها فيه..

***

بعد ثلاثة أيام هاتفتني وطلبت رؤيتي من جديد، وحينما التقينا اتفقنا الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم ما وذهبنا. كانت القاعة تلك فارغة إلا منا، كانت هي تحملق في شاشة العرض، وكنت أنا أحملق في عينيها، واستمر الفيلم مدة ساعتين..

***

بعد يومين..

في مكتبة ما في رام الله كانت جالسة على الكرسي، وقد وضعت يديها على الطاولة، وأرخت رأسها عليهما..

وكنت قد وصلت ورأيتها، فوضعت يدي على ما ظهر من يدها فاستقامت، وكانت فاتنة، بنمش وجهها والشعر الفوضوي الذي لا يسكن أبدا.

وبعد أن صافحتها وسألتها عن الكتاب الذي قد وضع جانبها، وحاولت أن ألتقطه اصطدمت بالخطأ أطراف أصابعي بيدها، وكان ذلك من أجمل الأخطاء التي اقترفتها يوما..

عتما لامست أطراف أصابعي أطراف أصابعها بالخطأ، نيت كيفية النطق.. خطأ أو اثنان آخران وساعود إلى رحم أمي..

رضحكت ..

. بحب ضحكتك هاي، واثقة إنك بتكون مبسوط لما أكون جنبك.

. مين ضحك عليكِ وحكالك إني بكون مبسوط؟

. قلبك..

- ما بتعرفي إيش جواه..

- بس بسمع وبحس بدقاته..

- بكون بضخ بدم مش أكثر.

- لِيكونوا كل جرحى الإنتفاضة جواك ليضخ بكل هاي السرعة؟!

يومها، ودون أن تدري، وضعت يومها رسالة - كنت قد أمضيت الليلة في كتابتها - في حقيبتها -بعد أن تذكرت أن معاذ كان قد أخبرني بولعها بالرسائل سابقاً - وكانت تلك بادئة لسلسلة من الرسائل الكثيرة التي كنا نتبادلها.. نضعها في كتب بعضنا، في حقائبنا، أونسلمها باليد ثم نمضي..

***

صديقتي نهاوند..

إنني أشعر بروحي الآن، أشعر بها كلها وكأنني خلقت مرةً أخرى، وكأنني كنت من قبل مصلح سيارات وأصبحت في ظرف ليلةٍ كاتباً، تخيلي أن يكون ذلك قد حدث حقا؟ إنني أشعر بهذا الشعور بعدما حققت روايتي نجاحاً لم أحلم به.

غير أن هذا ليس ما يجعلني ما أنا عليه من السعادة الآن، ضحكتك من تفعل ذلك..

أعرف أنه حدث بيننا من الخصام ما حدث، لكن الأشياء تصلح مراراً وتكراراً، والينابيع - كل الينابيع - قد تتلوث أحيانا، لكنها تصفو مع مرور الوقت..

فعلام نريد الاستمرار في هذه الزاوية الضيقة؟ ألا يمكننا نسيان الأمر؟!

أنا أعرف أن ما حدث في الأيام القليلة الماضية جعلنا نعيد شيئا ما من صداقتنا، لكنني أرى الخوف في عينيك في كل مرة، أشعر به، وأنا - أقسم- قد نسيت كل شيء مما حدث، ولا أذكر أي شيء بتاتاً..

فلماذا لا نتفق أن نعود بصداقتنا منذ البدء؟ وكان لا شيء
حدث، وكأننا التقينا من جديد شخصين آخرين؟

إن الذي يرى هذه العيون في كل مرة، قادر على نسيان
نفسه مرات كثيرة..

نمت بخير..

***

الصديق معاذ جهاد..

كما لم أرَ شخصاً يعبئ عيني من قبل أنا أراك، وأراك مختلفاً وكثيراً..

في كل مرةٍ أشعر أنك لست الشخص نفسه الذي عرفته من قبل، ربما تكون فرضيتك عن أنك مصلح سيارات صحيحة، في كل مرة تثبت لي أنك مختلف بطريقة استثنائية وتتفوق على نفسك، لم يحاول أحدهم من قبل أن يخرجني من هذه العتمة إلى نور لم أحسبه قد خلق على هذه الأرض، لكنك حاولت، ولي ثقة بعزمك الذي لا ينضب..

إنني أشعر بكل ضحكة ترسمها على وجهي التعيس، وإنني بدأت أدمن السعادة معك..

صديقي معاذ، الأنثى أضعف من أن تحفظ شيئاً يسعدها، وأقوى من أن تنسى شيئاً يحزنها، إن فيّ من الحزن ما يكفي العشيرة، وإنني مللت الفقدان.. وأنا أفتقدك.

كما لو أن الأمور كلها التي حدثت ما حدثت أنا أعاملك الآن..

نت لي صديقاً وأكثر قليلاً..

ملاحظة:

تأخر غداً في القدوم إلى المكتبة فلا تنزعج..
كني أقسم أنني سأشنقك إذا أتيت مبكرة
وتأخرت أنت..

***

وكما جرت العادة، في حديقة الاستقلال كنا نتارجح بعد عدة ايام ونتغازل بطريقة جنونية:

- مش ناوي تكتب عني رواية أو قصة؟

- خصرك لحاله قصة..

- بنفع المرة الجاي تحكي إشي أعرف أرد عليه؟

- المرة الجاي بحكيلك بحبك..

- قلتلك إشي أعرف أرد عليه مش إشي يوقفلي قلبي..

***

الرسالة 3:

صديقتي نهاوند:

الأرجوحة التي قلتِ البارحة – بعد أن تأرجحنا عليها – انها ستستمر بالتأرجح كثيراً، عدت إليها ووجدتك صادقة، ما زالت تتراقص من بعدك.. أشياء أخرى تتراقص بالمناسبة، قلبي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.. والأشياء جميعها مختلفة معك. على كلٍ، السترة التي ارتديتِها البارحة ما زالت رائحتك عالقةً فيها، كنت أريد أن أسأل، أستبقى كثيراً هذ الرائحة أم أنني سأضطر لإلباسك السترة مجدداً؟!

بمناسبة التصاق الأشياء.. مررت على بيت العجوز البارحة، وأوصتني أن أسلم على زوجتي، تقصدك.

وبعيداً عن كل شي، الجزء الثاني من فيلمنا - الذي انتظرناه طويلاً- سيعرض غداً، وعلبة «البوشار» لا أستطيع التهامها وحدي، فهل يمكنك المجيء؟

أتمنى أن تفعلي، وإن أردت الاعتذار فلا تختلقي عذراً، سأختلق أنا واحداً وسأقنع نفسي به..

إلى عينين لم أرَ مثلهما من قبل.

صديقي معاذ جهاد..

اعتذر عن خروجنا من الفيلم في منتصفه، واعتذر أنني لم أوضح لك الأمر، لكن الأمور تسوء قليلاً ولا أستطيع البوح بما يجري..

إن الكرة الأرضية يا صديقي تقتل الطيبين أمثالنا، إن فيّ من الحزن ما يكفي، وأنا الذي يملأ حياتي الصراخ، فهلا تبعدني عن ضجيج المدينة وتسكنني هدوء عينيك؟ وهلا تأخذني إلى مكان ليس فيه أحدٌ سوانا، ليس فيه بشر ولا صراخ ولا قتل ولا دمار ولا حزن ولا هزيمة.. ليس فيه إلا أنا وأنت، وحيدان كآدم وحواء في بداية الخلق؟ وهلا نستطيع البقاء هناك حتى الموت، أو حتى القيامة؟

أنا يا عزيزي متعبٌ إلى الدرجة التي لا تريحني فيها الراحة، مريضة إلى الحد الذي لا تهدّأ مرضي الحقن، وفيّ من الوجع كما لو أن أحدهم استمر في ضرب جسدي من أول ما ولدت إلى الآن..

وأنت -أنت وحدك- من أشعر بجانبه بأن الحياة تتسع، وإن النور - كل النور- موجود فيك..

صديقتي نهاوند..

الأشياء كلها تصرخ بك وباسمك، أتعرفين يا صغيرتي كيف بإمكان الله أن يجعل قلبك يتسع للدنيا وما فيها؟

وإن اتسع كيف بإمكانه أن يتسع لكل جمالك؟!

وكيف يمكنه سبحانه أن يختصر الدنيا في شخص واحد فقط؟

وكيف بإمكان كل الأشياء أن تصبح جمادات في حضرة عينيك؟!

وكيف أن الجمادات ترقص فيهما؟

أنا يا صغيرتي مفتون بك، إلى ذلك الحد الذي يجعلني غير قادر على العودة من هذه الفتنة..

على كل، هناك هدية صغيرة مع الرسالة.. أتمنى أن تعجبك..

عزيزي معاذ

اجمل الأشياء هي تلك التي يهديها لنا أصدقاؤنا،

وإن البالونات التي أصبحت تحضرها في كل مرة نلتقي

فيها، تجعلني أطير معها من الفرح،

وإنني أتبسم كلما تذكرتك وأنت تنفخ في واحد منها، حينما

سألتك «لماذا لم تعبئه بالهيليوم هذه المرة؟» فأجبت «إنني

أعبئه أنفاسي يا نهاوند»

وكانت تلك الجملة أقوى ما قلت لي..

لكنني لن أقبل هذا العقد منك، هناك أشياء أخرى لم أستطع

التخلص منها إلى الآن منك،

لا تزد علي العبء أكثر وتعلقني بك..

جميلتي نهاوند..

إن شيئا ما يتسرب إلى الأعماق ويترسب فيها، شيء ما لا يرضى أن يطفو على الأفق بتاتا ً، اشعر به يثقل ويثقل ويثقل.. أشياء أخرى تحدث، على مدخل التاجي، في الرئتين، فوق قلبي، أسفل الحنجرة وعلى أطراف أصابعي.. شيء لا أظن أنني قادر ٌ على السيطرة عليه بعد الآن..

اعرف أننا اتفقنا من قبل أن نكون أصدقاءَ فقط ولكنني الآن متحير ٌ قليلا ً.. عندما اتفقنا ذلك أكنت تعين بكلمة أصدقاء ما تعني؟! عندما وافقت أن نكون أصدقاء، وافقت أن أكون إلى جانبك دوما ً، هكذا تعني الكلمة بالنسبة لي.. المعاني الأخرى خاطئة.

عزيزتي نهاوند، المكان المتسع لا يعني بالضرورة أن لا أصطدم بك. والمنبه آلة رديئة جدا ً لمن وقع في الحب، الأحلام التي نختارها بعناية، كيف به يخرجنا منها، وللمكتبات فوائد عدة، أهمها أن يجلس عاشقان ويقرأن عيون بعضهما، أن يتبادلا الغزل فيها، أن اقول لك أن ضحكتك جميلة مرارا ً وتكرارا ً، أن تبتسمي لي، وأن تلامس أطراف أصابعنا بالخطأ، وأن يحدث ذلك

كثيراً..

الأرجوحة لم تخلق للصغار، أو أنك أنت التي لم تكبري إلى الآن. والشوارع لها فوائد عدة، أهمها أن يمسك اثنان بيدي بعضهما وهما يقطعانها، و إشارة المرور كاذبة، لا أمان في قطع الطريق عندما تخضر الإشارة، أنا أقطع الطريق عندما تمسكين يدي..

على كل.. أنت جميلة جداً، وأنا مفتون بك حد اللاوعي..

عزيزي معاذ..

مذاق شعر العروس معك مختلف جداً، علينا تجربته مرات ومرات كثيرة، الركض في شوارع رام الله فكرة ليست سيئة كما كنت أظنها، أضف إلى ذلك أن ملاهي الأطفال مناسبة جداً للمراهقين أمثالنا، لا أعرف أكلّ هذا يخطر على بالك فجأة؟ أأنت طفولي إلى تلك الدرجة؟ أم انك تحاول جعلي سعيدة فقط؟ في كل الحالات، لا يهم..

على كل، وردا ً على آخر رسالة منك يا صديقي، إن كل ما تشعر به ليس إلا محض خيال، نحن لن نكون لبعضنا البعض، لماذا لا نستمر هكذا صديقيين إلى أن تقوم الساعة؟

لا أريد أن أخسرك..

الجميلة نهاوند ..

ما الفائدة إن أطعمتك كل يوم الحلوى؟! أتشبع الحلوى بطناً؟ وما الفائدة يا صغيرتي إن جلسنا نقرأ كتاباً مع بعضنا دون أن أتحسس شعرك؟ أي كتاب قد ينتهي في نصف ساعة؟! وما الفائدة إن لامست أصابعي اطراف أصابعك بالخطأ؟ أتنجب الأيادي طفلاً؟! أنا متعب جداً..

أنا أشعر بها الآن،

بكل حرفٍ خلق فيها،

ولا أستطيع إخفاءها أكثر..

السهام التي لا ترد هي سهام خائفة أو غادرة..

وأنا أحبك..

عزيزي معاذ..

كما لم يحب احدٌ احداً أنا احبك..

هناك مفاجأة أحضّرها لك..

حبيبتي نهاوند..

لم أكن أعرف بتاتاً، أن مفاجأتك ستكون أن تصطحبيني إلى المواجهات عند حاجز بيت إيل، ولكن وإن حدث الأمر، وكان غريبا جداً، فلتكن معاهدة بالحب الأبدي الذي بيننا...

سنبقى نحب بعضنا إلى أن نموت بتفجير ما أو قنبلة، أو رصاصة، وعديني أن لا تكوني أنانية، وأن نموت بنفس الرصاصة.

ستقولين دوماً «أحبك كما أحب الوطن»،

سنتزوج في عيد الثورة، وفي يوم الزواج سنغني الأغاني الثورية، عوفر والمسكوبية، لينا كانت طفلة..

لا أعتقد أنك قد ترتدين فستاناً وكعبا طويلا...

أنت امرأة أشك أنها سترتدي جزمة حربية وكوفية في احتفال عرسنا، وأشك أنك ستطلبين مني وقتها حرق إطارات السيارات، ورفع لافتات الشهداء، والدعاء على إسرائيل بالموت، والرقص على صوت قصف معسكراتهم وعلى صوت صفارات الإنذار..

لنتفق،

لن نحتفل بأعياد الميلاد، ولا عيد الإستقلال المزيف،
سنحتفل بعيد الثورة، وسنلعن أوسلو ليلاً نهاراً.

سنتبادل القبل عند أقرب حاجز، وسأدعوك لشرب فنجان
قهوة معي عند عوفر.

ونتفق من البداية، لن تشاركي في المواجهات دوني بتاتاً
مهما حدث، سنسير في المظاهرات معاً، سنرمي الحجارة
معاً، سنسجن إن سجنا معاً - سأفعل المستحيل لنعيش
في سجن واحد- وسنعقد اتفاقيات كثيرة بيننا، وأعلم أنك
ثورية جداً، ولن تلتزمي بالاتفاقيات كثيراً، وأحب ذلك..

على كلٍ، نسيت أخبارك، لدي فوبيا جديدة الآن من حرف
الهمزة، أي كلمة تبدأ بهمزة تبذل جهدها في أن تخرج
«أحبك»،

لذا أحبك..

عزيزي معاذ..

«بحبك، ويلعن أوسلو»..

كما لو أن الثورة التي أطفأتها السلطات في البلاد، اشتعلت في قلبي للتو.

وكما لو أن الصغار الراكضين من الجند، يركضون في جسدي الآن.

كما لو أنني كنت حيفا وعدتَ إليّ بعد بضع سنين فاتحاً..

أنا أحبك..

وكيف يمكن أن تكون قبضتك على يدي تشعرني بالحرية؟!

وكيف يمكن أن تسجن روحي إذا ما أفلت يدي؟!

وكيف يمكن أن يكون بيت والد إحداهن سجناً لها؟

وكيف يمكن أن تكون أرضاً بحجم صدرك وطناً مبتغى؟!

الجميلة نهاوند..

إمساك يديك عمل وطني، أنت لاجئة وأنا مقاوم، الكثيرون أفلتوا صفد من أيديهم، أنا أمسك شيئاً منها كلما أمسكت يدك..

الثوار يا عزيزتي لا يسقطون أبداً،

ولا يرحلون عن أوطانهم إلا شهداء،

هي مسألة وقت لا أكثر، وسترين أحداً ما يطرق جدار بيتك ويسقطه ويحررك منه..

استمرت مكالمتنا واحد وثلاثين دقيقة وثمانٍ وعشرين ثانية ونحن نسمع أنفاس بعضنا دون أن ننطق حرفاً واحداً. ثم سألت: «معاذ، إحنا إيش بنعمل؟»

بنتنفس يا نهاوند، بنتنفس..

شاعري
تعاهدنا أن تمسك يدي كلما قطعنا الطريق..
البارحة قطعت الشارع دون يديك،
نسيت يدي على الرصيف،
احضرهما معك..

حبيبتي نهاوند..
كنتِ صادقة جدا قبل ثلاثة أيام حينما قلتِ - بعد أن تأفأفتِ - أن طلاء أظافرك صعب الإزالة، فرائحته - وأشياء أخرى - ما زالت عالقة فيّ..

على كلٍ، أفكر في نشر رواية جديدة، رائحتك ستأخذ حيزاً كبيراً منها..

حبيبتي نهاوند ..

الله يقول «إن مع العسر يسرا»، فما بال عينيك كلتاهما تقتلانني ؟!

امرأة مثلك كثيرة جدا عليّ لأحبها مرة واحدة، لنتفق.. سأحبك جزءا جزءا، سأحب عينيك أسبوعا، شعرك أسبوعا آخر، أطراف أصابعك أسبوعا ثالثا، ورابعا لحديثك..

أما ضحكتك سأحتاج عشرين عاما على الأقل لأكتفي منها..

اليوم افتقدتك وافتقد الحديث معك.

لماذا لم تأتِ إلى الجامعة؟

لا تقولي أننا قد شبعنا حديثاً، أنا لا أشبع منك، حدثيني عن أتفه تفاصيلك، وسأصغي إليك بكل اهتمام كما لا أهتم بأهم الأمور في الدنيا، أنا مستعد للاستماع لثرثرتك لوقتٍ طويل جدا، لكن لا تتوقفي عن الحديث بتاتاً.

حدثيني عن أحمر شفاهك الذي قد تلف في الصباح، واحتجت إلى أكثر من عشر دقائق كي تصلحيه، وكيف

نك تطلب منك غسل الصحون عند منتصف الليل، وكيف
نك تحبين الاستحمام بالماء البارد، وكيف أنك تبقين
لشباك مفتوحاً قبل النوم حتى لا تفوتك فرحة الانتصار
إن حدثت بين ليلة وضحاها، قولي لي كيف تبدئين بقراءة
لكتاب من نهايته فإن أعجبتك النهاية قرأتي الكتاب،
وكيف أنك تبقين لساعاتٍ طويلة تحدقين إلى أسفل الخزانة
خوفاً من أن يكون أحدٌ هناك، كيف تحبين الركض في
الشارع، وكيف تلعبين بخصلات شعرك وأنت تحدثينني،
وأنك تحبين الفراولا ولا تحبين العنب، وأنك تحبين اللون
الأبيض لا الأسود، والأزرق لا الأخضر، وكيف تعجبك
القمصان الطويلة.. لا يهم أي المواضيع تختارين، حتى
ولو كان حديثنا عن التصحر أو التمدد العمراني..

المهم أن أبقى لساعاتٍ طويلةٍ أستمع إلى صوتك.

صديقي معاذ

هناك أشياء تحدث،

وما عاد باستطاعتي تدارك الأمر،

كن بخير واعتن بنفسك جيداً ..

وكانت تلك آخر رسالة قد وصلت منها..

نحن لا نرى الأشياء دائما على حقيقتها، نحن نرى ما تريه لنا الأشياء..

***

لم أعرف السبب الذي جعل الباب يغلق وقتها، لكنه أغلق..

- انهيت اثنين وعشرين سنة أم هي من أنهتك؟

- لقد انتهينا مع بعضنا البعض.

- لقد كبرت بسرعة، أسرع مما كانت تتصور أنك ستفعل.. كيف كان بإمكانك السقوط أكثر وأكثر وانت في القاع؟ قاع كل شيء، ذلك القاع الذي ليس فيه أحدٌ سواك، حتى ظلك في نهاية الأمر تركك، وهنا تكمن الفكرة أصلا، في النور وتحت الشمس يكون الجميع معك، في الظلام والتعاسة حتى ظلك يتركك..

صمتَ لفترة طويلةٍ قبل أن يكمل:

- ألم يحن عليك أن تعترف لنفسك؟

- لقد اعدت الإتصال بها ثلاثٍ وعشرين مرة، إنها باختصار لا تريد أن تجيب..

- إنها تجيب، أنا متأكد من الأمر، لكن خطأً ما في شبكة الاتصال يحدث..

- متى وصلت هنا؟

- أكنتُ في مكانٍ أخرٍ من قبل؟ غير هذا القاع؟

ـ والذين كانوا من حولك؟

ـ كنت أنا حولهم، لا هم حولي ولا حول لي ولا قوة إلا بالله..

ـ لا يهم، لقد كنتم مع بعضكم.

ـ كنا بجانب بعضنا..

ـ عندما تقف على مفترق بثلاث طرق مختلفة، فإن أفشل قرار. قد تتخذه هو أن تمشي في طريق. قليلاً ثم تجرب الأخرى ثم الثالثة.. لأنك في نهاية الأمر ستجد أنك قد عدت مكانك..

ـ ستبقى على قيد الحياة على الأقل.

ـ إذا اعتبرت هذه حياةً نعم..

ـ لقد كنا مناسبين لبعضنا جداً..

ـ لكنها لا تحبك..

ـ بل تفعل..

ـ لو كانت تفعل، لكنت الآن تحادثها، لا تحادثني عنها.. قلت لك من قبل، عليك أن تعرف طريقك، وعليك أن تعرف عدوك.. ألا زلت قوياً كما كنت؟

لست أعرف أما زلت قوياً أم لا، لكنني أعرف أنني لست كما كنت..

ثم سألته أنا:

- كم مضى من الوقت؟

- ما يكفي لنسيانها..

- ما يكفي.. لكن يبدو أنه لم يفعل..

الفصل السادس
القيامة

مصير الكتاب في نهاية الأمر، أن يكتبوا عن الحب، لا أن يعيشوه..

2016/10/4 معتقل:

تم إرسال ورقة استدعاء لي منذ عدة أيام، واليوم ها أنا هنا، جالساً على كرسي، وقد وضعت يدي على الطاولة، وفكرت لمراتٍ كثيرة عن السبب الذي جعلهم يرسلون استدعاء لي، إلى أن أتى..

كان ضخم البنية وقد تبسم حينما رآني وكأنه يعرفني من قبل، وكنت أظنني قد رأيته سابقاً..

- إيش تشرب؟ أو لا.. أنا بعرف إيش بتشرب.

وقد نادى على أحدهم وقال له « أحمد، كاستين عصير عنب» وكان ذلك إشارة منه إلى أنه يعرفني وجيداً..

جلس على الكرسي، وأشعل سيجارة وأمد سيجارة لي فخاطبته:

ما بدخنش..

- تمام، مش ضروري.. كيفك؟
- الحمد لله، بس ضايل أعرف ليش أنا هون..
- أخرتك بتعرف ليش انت هون..
- معاذ جهاد ، اثنين وعشرين سنة
- ما كملتهمش لسا..

- حقك علينا.. معاذ جهاد 1995/5/26
- صدقني إنك مخطي كثير بس تمام..
- بتدرس هندسة، جامعة بيرزيت، بتكتب، نشرت رواية من قبل، حققت نجاح كثير منيح، ورح تنشر رواية جديدة عن قريب، مشهور إلى حد ما..
- ما جبت إشي جديد برضو..
- ايش انتماءك السياسي؟
- ما في إلي انتماء سياسي..
- وإيش انتخبت بانتخابات بيرزيت الأخيرة؟
- أعتقد إن من حقي إني ما أجاوب على هاد السؤال..
- ليش؟
- لأنه ما بخصك كثير..
- حلو.. ولسانك طويل كمان.. ما حكوليش هاد الإشي
- ممكن أعرف أنا ليش هون؟
- تحولت فلوس إلك من تونس، الجزائر، الأردن ولبنان.. مع أي تنظيم بتتعامل؟
- أعتقد إنك عارف إن هدول الفلوس من الرواية.. والتحويل كان من دور نشر..
- بس الناس بتعرفش هيك والمخابرات بتعرفش هيك..
- ما فهمت..

- نزلت على حاجز بيت إيل قبل فترة.. كنت تروح تنشر في الرواية هناك؟
- اه لأنه في كثير ناس بكونوا هناك..

وضحكت.. وقهقه كثيراً قبل أن يطرق بيده الطاولة ويقول:

- معاذ، عليك نقاط كثير، نزولات على بت إيل، فلوس محولة من دول ثانية، خروج ودخول على الأردن لمرات كثيرة، ولسان طويل مش مخلي حدا من شره في أول سنتين في الجامعة.. بس كل هاد بهمنيش..
- والا إيش إلي بهمك؟
- نهاوند.. سمعت بالإسم..

وقتها أحسست أن شيئاً أكثر غرابة يحدث.. حاولت الإنكار لكنني كنت أدرك أنه يعرف الأمر..
مالها؟

- خطيبتي.. ما خطبناش رسمياً، بس كل إشي واضح، من ثلاث سنين متفقين على الموضوع.. وبعد كل هاد تيجي إنت تخربه.. مش رح أسمحلك..
- جايبني هون عشان تحكي هالكلمتين؟
- كان ضروري.. بديش أسمع كلمة عنها، البنت رح

ـ تنخطب وبعتبر موضوعك خلص معها

ـ بس هي ما بدهاش إياك..

ـ بدها إياني ما بدهاش إياني.. ابعد عنها، تمام؟

ـ لا مش تمام..

اخذ نفساً ثم أطفأ سيجارته جانباً..

***

كنت قد ضربت من شخصين آخرين حتى وصل بهم الأمر إلى ضربي على مناطق حساسة في جسدي، استمر الضرب لما يزيد عن ساعة، وبعدها علقت من جسدي وقوفاً بالسقف.. وظلوا يرشقون علي الماء لمرات كثيرة، وكنت أفكر بالأمر..

كنت أضرب لأمور شخصية..

***

- معاذ جهاد.. احسن هلأ؟

لم أجب، وكان قد أشعل سيجارة أخرى ووضع قدماً على الأخرى بينما كنت أنا أحوال إغماض عيني لأريحهما قليلاً..

وقد أزاح الكرسي ووقف ودار من حولي

إحنا عارفين كل إشي..

كل اشي؟ كل اشي عن إيش؟

استنشق شيئاً من دخان سيجارته، ووضع السيجارة جانباً ثم أكمل..

- إحنا عارفين كل إشي يا محمد..

- ايش؟

- كيف حال أبوك؟

- منيح الحمد لله..

- والدكانة تاعته منيحة؟ أخوتك الستة مناح؟

وقتها كان لا فرار لي، فقد بان أنه يعلم القصة كاملة..

- قلتلك بحاول أساعدك، وحاولت ما ألجأ لهاد الأسلوب.. بس انت اضطريتني

ـ كيف عرفت؟
ـ تنساش إني مخابرات يا عزيزي.. معاذ كان مراقب حتى من قبل صحبته مع خطيبتي، بتعرفه كثير حكي وهدي مرة وحدة وكان عليه كثير قصص .. وبعدها اجيت انت وكنا عارفين بكل إشي بصير بينكم.. بالأول حكيت طيش شباب وبمضي.. بس انت زودتها.. طلعات جايات.. زودتها كثير..
ـ ممكن أفهم ليه كاينين تراقبوا بمعاذ؟ كثير مزعجكم؟
ـ الهاديين كثير بوجعوا الراس لما يحكو وهو هيك كان..
- إيش بدك؟
- ما بديش إشي.. فكر باللي حكيتلك اياه من قبل، واعتبر هاي فرصة ذان، واتذكر عيلتك وسمعتك إيش ممكن يصير فيها، تمام يا .. معاذ ؟
- مش تمام برضو.. بتعرف إن فش حد رح يصدق هاي القصة..
- مش مهم الناس تصدق، أعتقد المهم إن نهاوند تصدق حاول اقنعها يبقى..

وضحكت.. حينها قهقه هو وقال:

ـ أعتقد إنها صدقت وهي بتسمع كل إشي بصير هون..

***

بدأت المشاكل مع والدي حينما خرجت من هناك، وقتها لم يصدقا بأن الرواية التي كنت قد نشرتها هي السبب، وظلا يحاولان التشكيك فيّ وأنني قد اقترفت أمراً خاطئاً..

بعد عدة أيام بدأت الإشاعات تلاحقني في الجامعة، إشاعات كثيرة لا أعرف من أين كانت تولد، علاقات مع نساء لا أعرفهن، أموال مشبوهة، والكثير..

وطردت من الجامعة عقاباً على علاماتي المتدنية..

وحاولت الإتصال بها لمرات كثيرة لكنها لم تكن تجب، وظللت أحاول عبثاً.. وإنني كنت وقتها قد أدمنتها تماماً، وما كنت أعرف كيف أنها قد رمت بي بوادٍ غير ذي زرع عند قلبها المقدس، وحيداً وقد تركتني دون أن تلتفت، ودون أن يأمر الله بذلك. وإنني طفت بين عينيها سبعاً، وإنني زمزمت علها تحن علي من صحراء. هي الأرض دونها، لكن القلب ما أنجب وما أخرجت ماءً

يسقي عطشي، ولا حباً يقيني الجوع والمنفى..
ظللت لأيام. طويلة أحاول الإتصال بها..
بعد عدة أسابيع، على أحد المفارق صادفتها ولحقت بها..
ـ نهاوند.. اسمعيني بس شوي..
ـ معاذ .. أو آه .. نسيت إن اسمك مش معاذ طلع، ابعد من حياتي لو سمحت

ثم ذهبت وأنا أحاول أن ألملم الكلمات من الطريق محاولاً الاجابة..

***

بعد عدة أيام..

كنت قد تلقيت اتصـالاً هاتفياً من أحد, لا أعرفه..
منتظراً في أحد المقاهي التي كنا قد اتفقنا ان نلتقي فيها
كنت حينما أتى وقد اتخذ من كرسي, مجلساً له.

- معاذ جهاد، كان نفسي من زمان أقعد معك، بس هاي هي الدنيا
- ما عرفتنيش عن حالك؟
(وقد كان وجهه يبدو مألوفا).
- مش مهم.. جايبك بكلمتين ورد غطاهم.. غلطت معها؟ مين؟
- انت عارف مين، لازم أحذرك، وبتمنى ما تكون غلطت غلطي وبصير فيك زي ما صار في..

***

بعد عدة أيام، بدأت تلك الأفكار تجول في ذهني، أشياء كثيرة بدأت بالتلاقي لتكوين خيوط لأشياء فوضوية تجعلني أتوه في نفسي..

تذكرت لوهلة في كل شيء ولملمت فتاته..

في بادئ الأمر، تذكرت تلك اللحظة التي صرخت فيه نهاوند يوماً وقالت «محمد» ثم تحججت بعدها بأنها كنت تقصد آخر، أكانت تعرفني من قبل؟!

والمرة الواحدة التي شاركت فيها بالمظاهرات في بيت إيل، لم يكن يعرف أحدهم نيتي للخروج، بل وإنني خرجت متلثما من رام الله، لم يعرف أحدهم عن الأمر شيئا سواها .. نهاوند ..

ومن ذا يمكنه أن يلاحق أصغر تفاصيل يومي جميعها؟ من بإمكانه أن يفرغ كل حياته لمتابعة حياتي الفارغة بتفاصيلها؟ وأنا الذي لم يرافقني في الفترة الأخيرة سوى نهاوند..

وكيف عرف عن نيتي لنشر رواية أخرى، إذ أنني لم أخبر أحدهم سواها.. نهاوند..

واقسم أنني قد رأيت وجهه من قبل..

أقسم بذلك ولكن أين؟

في اليوم الثاني، بحثت عنها في أرجاء الجامعة، في كل شبر منها، ولم أجدها.. ثم بدأت أفكار أخرى تتسرب في» ربما هي لست طالبة في الجامعة أصلا»..

بدأت الشكوك تتراكم شيئاً فشيئاً في منحنيات عقلي، كل شك يحاول أن يكون هو أكبر إخوته..

يومها استطعت يومها بوساطة صديق لي، معرفة أن لا طالبة في الجامعة في هذا الفصل اسمها نهاوند.. ولكن، ربما كانت في الفصول الأخرى ـ شككت في نفسي...

***

بعد يومين، وعندما صحوت من نومي، تذكرت ذلك الوجه الذي حقق معي، «لقد رأيته من قبل، كنت أعرف» صرخت..

متجها إلى مركز المخابرات ذاك، ودون أن أصعد العمارة تلك، وقفت أمام الساحة الأمامية التي امتلأت بالسيارات، مطلقاً عيني بحثا عنها، وكانت تحاول أن تنكمش على نفسها هاربة مني..

جيب زرقاء لن تخفى علي -كيف يمكن أن تخفى سيارة على مصلح سيارات ؟ ووجدتها..

وظللت مسنداً ظهري إلى حائط قريب منتظراً إياه أن يهبط من مكتبه، ويستقل السيارة تلك..

ظللت انتظر لما يزيد عن ثلاث ساعات.. إلى أن نزل وصديق له واستقلا السيارة تلك، وضحكت ملء فاهي وكنت أعرف..

جيب زرقاء هي من قتلت معاذ أمام عيني وأمام المفرق ذاك..

وكانت الأمور تتضح أكثر وأكثر، وكلما اتضحت تشوشت أنا..

إذاً لم يكن حادث سير بتاتاً، كان الأمر مخططاً.. لقد أرادوا قتله بسبق الإصرار والترصد، وقتلوه شاباً فقيراً دون أن يعرف أحد، وتركوا على هذه الدنيا غيره باسمه، ولكن لن يضرهم شيئاً..

ثم عدت إلى الأمر من بدايته، كيف عرف أبوها عن اسم معاذ حينما دخل المشفى ذاك؟ وكانت ابنته قد أصيبت؟

***

الأمور أكثر وضوحاً..

وقعت هي ارضاً، وأسعفها هو وصديق له، جاء والدها ونادى باسمه، وقد كان يعرفه من قبل، بعد فترة حادثته لتلتقي به، وتلاقيا وأصبحا صديقين، وأصبحت تعرف كل شيء عنه، كل شيء عرفته هي كانت المخابرات تعرفه..

ثم افترقا بعد أن كسر قلبه..

التقى بي واتفقنا على ما اتفقنا عليه، وكانت تلك الفرصة المثالية لقتله دون أي ضجيج قد يحدث.. قتله هو بسيارته الزرقاء تلك وأكملت أنا حياته..
وعادت هي بعد توقيع الرواية تلك، لتتأكد أن كل الأمور تسير على ما يرام، وأنني لن أسير على إثره..

ثم ماذا؟ ثم يقررون الإفصاح بأنهم يعرفون أمري، لتنتهي القصة ولتخرج هي بكل هدوء من حياتي، كالشعرة من العجين.. وأكمل الحياة ولا شيء يحدث..

أعدت القصة مراراً وتكراراً، «ولكن لماذا أرادوا قتله ؟!» فكرت.. ربما لأنه أدرك ما أدركت للتو؟!

ربما كان علي على حق، محاولة إسقاط كاتب ناشئ، لكنه

كان أذكى من ذلك بقليل، وأضعف من عينيها، وأدرك كل شيء.

ربما يكون ذلك الشيء هو الأمر الذي حاول إخفاءه عني؟! لقد كان يعرف أن نهاوند لم تدخل حياته لصدفة بل دخلت لغاية هي في نفسها..

إذاً، كان يدرك الأمر ولم يكن بيده ما يفعل، كانوا يعرفون عنه كل شيء أفصحه لها، وحاول الخروج من الأمر ودفعي أنا نحوه محاولا الهرب منهم لينجو ويستطيع كشفه بطريقة ما.. لكنهم قتلوه ..

وفكرت، وإن لم يكن قتله مجرد صدفة، فلماذا ياهي من قتله؟ لماذا لم يكلف أحدهم بفعل الأمر؟!

بعض الأسئلة كانت تحتاج إلى إجابة..

من يستطيع المساعدة؟ شخص واحد فقط..

**

في أحد المحلات التجارية كان يعمل منذ برهة، وكنت أعلم ذلك من صديق له. دخلت المحل ذاك ونظرت إليه..

واضعاً أحد القمصان جانباً، وقد بدت عليه علامات الغضب متوجهاً إلي صارخاً..

- لو سمحت اطلع من المحل
- علي لازم نحكي ..
- معاذ، سببتلي مشاكل بما فيه الكفاية..
- فهمني إيش في؟
- ماسكين علينا كثير.. كثير يا معاذ.. قلتلك!
- السلطة؟
- غبي، السلطة إيش بدها فيك؟!

***

كانت الأمور تتعقدت أكثر وأكثر، وأنا لا أزال أحاول السيطرة، كان لا بد في هذه اللحظة أن أستعين بالشخص الذي ساعدني منذ البدء وأبوح له بأنني اكتشفت أمر نهاوند.. ينال..

في أحد المقاهي التقيت به.

كان قد جلس يستمع إلي عندما بدأت بشرح الأمر له..

- كنت عند المخابرات قبل أكمن يوم..

- طيب؟

- سألوني عن كثير أشياء، عن نهاوند وعن معاذ وعن

- علاقتنا وعن كل إشي..

- إيش في معاذ؟ احكي..

- أول ما كعدت بدوا يحققوا معي، حاولوا يفهموني إنهم عارفين كل إشي، اسم امي، تاريخ ميلادي، وحكولي إنهم عارفين إني مش معاذ، وعارفين كل إشي صار من قبل..

وقد قهقه كثيراً قبل أن يرن هاتفي وأجيب عليه لبضع دقائق، قبل أن أساله بعد أن نسيت نقطة حديثنا..

- وين وصلنا؟
- عند لما كانوا يحاولوا يفهموك إنهم عارفين كل إشي، اسمك واسم امك.. وعارفين كل اشي، وجابولك عصير عنب، وعلاقتك بنهاوند..
- اه.. بالزبط..
- طيب؟
- قررت أبعد عن نهاوند.. مش ناقصني مشاكل ووجع راس.. كان لازم أرد على معاذ من الأول..
- بس هيك؟ ما في إشي ثاني؟
- بس هيك، شو بدو يكون في يعني؟!

***

« ماسكين علينا كثير.. كثير يا معاذ.. قلتلك»، «عارفين كل إشي، وجابولك عصير عنب»، «غبي، السلطة إيش بدها فيك؟!»، «أنا بعرف سرها»..

كانت الأشياء تتشتت أكثر وأكثر ثم تعود للتلاقي وسط ذهول مطلق..

إذا، ربما يكون الأمر أكبر من السلطة، **ربما تكون محاولة** إسقاط ولهذا بالذات كان **باهي من قتله لا أحد آخر، ربما**

يكون على علاقة مع جهات أخرى..

إذاً، فكل تلك الثورية التي كانت تزرعها على عينيها كانت تخفي وراءها شيئاً، كانت تحاول خداعك بكونها عاشقة للوطن في الوقت الذي كانت فيه هي أشد أعدائه؟! كثيرون من يفعلون ذلك، كثيرون من يستترون بعباءة الوطن نهاراً ويبيعونه ليلاً..

ولكن السؤال الذي اجتاحني فجأة، كيف استطاعوا مراقبة كل الأمور التي تحدث، كيف عرفوا أنني ومعاذ قمنا بالأمر فعلاً في تلك الليلة بالذات، مع أنه لم يكن قد سمع حديثنا أحد!!

لكن، ربما أحدهم قد سمع حديثنا! ربما كانوا يتجسسون عليه فعلا! ولكن، كيف لهم أن يتتبعوه حتى في داخل بيته وقد كنا اثنين فقط، أنا وهو؟!

فكرت في الأمر لما يزيد عن ساعة قبل أن أضع يدي اليمنى على على صدري متحسساً وجه البندقية التي كانت تحضنه..

وضحكت كثيراً قبل أن أصرخ .. «سنسال نهاوند».

ظللت اضحك لمدة طويلة على الأمر قبل أن افكر بالأمر الأكثر غرابة.. كيف عرف ينال أنهم قد أحضروا لي كاساً من عصير العنب دون أن أقول له؟!

***

ت..

كنت احتاج إلى بضع دقائق أخرى كي تغفو عيني

تغلق امي الباب قبل أن أحذرها، ويأتي هو..

ـ امحتاجٌ أنت لأكثر من هذا الضجيج الذي بداخلك يا ابن الهدوء؟ وأنت الذي قد تأخرت ست سنوات كاملة لتعرف نطق كل الأحرف، ما فائدة الأحرف كلها التي قد تعلمتها الآن، في الوقت الذي يصبح فيه أن تبلع لسانك هو أبلغ عمل, قد تقوم فيه الآن ؟!.. من قبل، في السابق، عندما كنت حيوانا منويا ً، كنت سعيدا ً جدا لأنك قوي، أقوى بكثير من جميع الذين رافقوك في تلك الرحلة، ووحدك أنت من استطعت أن تنجو، وماذا الآن؟ أتحسد الذين ماتوا على الموت كما يحسدونك هم على الحياة؟ أكسرتك الحياة؟ أتعبت؟ لم يكن هذا الأمر سوى البادئة فقط.. هذه أولى اثنين وعشرين سنة في حياتك، وصرت تلعنها؟! تحقد عليها؟ لم ترَ شيئا ً بعد، كل ما حدث كان درسا ً تجريبيا ً لما سيحدث تباعا ً، قلت لك، تريد أن تغادر غادر الآن، انتحر، في كل الحالات إذا انتحرت في سن العشرين أو الخمسين سيبقى الأمر انتحارا ً، إما أن تقرر أن تنهي الطريق

الآن وتقف وتنتظر الصحراء والحر أن يقتلانك أو أن تكون أقوى من الطريق والصحراء والحر.. وكيف حالك أنت؟ أليس يكفي؟ الوجع الذي بداخلك وجع مدينة كاملة مبنية على أساساتٍ من خشب، وأحرقت، وكلما أحرقت أطفأتها أنت، ولا زالت واقفة على شفا حفرة من جهنم، أساساتها بالية، هشة، قد تسقط في أية لحظة .. وماذا فعلت في آخر فترة ؟

- المزيد من التكرار، تكرار لأشياء كثيرة كنت أخالني للحظة أفعلها لأول مرة..

- قلتَ بأنك قادرٌ على تحرير العالم لو غيرت حالك والآن؟

- حاولت أن أحرره، فسجنت نفسي

- وماذا الآن؟

- هذا السؤال الذي أطرحه على نفسي في كل ثانية في آخر ستة أيام؟ ماذا الآن؟ سأكمل؟ ماذا أريد وماذا لا أريد؟ المشكلة في الحروب، بعد فترة لا تصبح الغاية أن تنتصر أو تحرر البلاد بأكملها أو تثبت مبادئك، الغاية تصبح أن تبقى على قيد الحياة فقط، أن تكمل أكثر وقت ممكن كي لا تسمع أحدهم يوماً يقول أنك انهزمت، الغريب في الأمر، أنك إذا ما انهزمت ستكون

ميت ولن تسمع أحدهم يقول أنك انهزمت..

ـ لقد جاء الخريف

ـ نحن في اكتوبر عزيزي!

ـ اقصد ..خريفك أنت، الا ترى نفسك تتساقط أكثر وأكثر؟هذه دورة الحياة ربما، أن تصل القمة وتهبط مليون قاع، وأن تبتسم يوماً وتغضب عشرين.. لكنك ربما استمريت بالتساقط لأربع أشهر ولم تحاول أن تنمو مجدداً..

ـ ماذا كان من المفروض أن أفعل؟

- حذرتك من قبل، قلت لك، الحياة تعطيك لتأخذ منك ليس أكثر، لا تأخذ منها شيئاً هو ليس لك، كن أنت أنت..

- وماذا سنستفيد إذا لم نأخذ شيئاً؟

- وقتها لن نخسره.

- أنتقوقع؟

- وماذا تفعل الآن أنت غير التقوقع؟

- لا شيء.. مجرد لا شيء آخر..

- سيطول الأمر؟

- عن ماذا تقصد؟

- أقصد عنك وعن داخلك؟ الصراع الذي بينكما، متى

ستنسجمان؟
- المشكلة أن المكان الذي لا تجد فيه نفسك، لن تجد فيه شيئاً..

**

حاولت مراراً وتكراراً الوصول إليها بعدها لأوضح الأمر لنفسي، ولأفهم كل شيء، لكنها كانت قد أغلقت كل طريق يوصلني إليها. هاتفها مغلق دائماً، مواقع التواصل الغبيّ جميعها، لم أعد أراها مصادفةً بتاتاً، وكلما سألت إحدى صديقاتها عنها أجابت بأنها لا تعرف شيئاً عنها، كانت قد اختفت تماماً، وكأن الأرض ابتلعتها..

لقد كانت علاقتنا عبارة عن أنصاف أشياء تحدث، نصف تأتين ونصف تذهبين، نلتقي لنصف ساعة، نجلس متباعدين بنصف متر، تأكلين نصف شطيرة وأشرب نصف كأس شاي، أمسك يدك إلى منتصف الأصابع، وفي حضرتك أخذ نفسا وأنسى إخراجه، والفيلم الذي خططنا مرارا لمشاهدته سويا غادرنا قاعة السينما في منتصفه، وحتى عندما أردت الاعتراف بالحب في أول مرة قلت « أح..» ثم قطع الهاتف.. لم نفعل شيئا كاملا يوما، فلماذا الآن تكملين غيابك؟!

ربما شكوكي صادقة، ربما أنت حقاً كما وصفت « ابنة الشيطان» لكنني أحبك ولو كنت الشيطان نفسه.. ورغم كل الدلائل التي تجعلني أكرهك، إلا أن عيون الشياطين ليست جميلة، أنا متأكد من الأمر..

***

2016/10/18

وجدت في حقيبتي رسالة دون ذكر المرسل ولا التاريخ قيل فيها..

« لا أعرف من تكون، لا اسمك، لا اسم أبيك ولا أمك، لا اسم عائلتك، أين ولدت وأين عشت وكيف، لا أعرف من أية بيئة جئت،لا أعرف أصولك، ماذا كنت، ماذا عملت في السابق، كيف ولدت وكيف تربيت وكيف نشأت، لا أعرف أية تفصيلة قد توضح الأمر، ولا أعرف أي شيء عنك، لكنني اعرف أنني أحبك .. أحبك كما لم أحب أحداً من قبل.. ألتقيك غدا أينما اعتدنا أن نلتقي ببعضنا، على الساعة الثالثة عصراً، لا تتأخر»..

وبعد كل تلك الافتراضات التي نضجت لتصبح حقائق مع الوقت بالنسبة لي، إلا أنني توجهت يومها إلى هناك، لأيام طويلة، ظللت أنتظر منذ الثالثة للرابعة وللخامسة أحيانا، استمر الأمر أسبوعين ولم تأت...

وكنت أراها كثيراً.. في كل الوجوه، وأكبر مشكلة كانت أن الجميع يشبهها مع أنها لم تكن تشبه أحداً، وهي امراة كما جهنم تماماً، لا يموت الإنسان فيها ولا يحيى..

***

الذين نجوا من حادث القطار، لم يكونوا أولئك الذين تشبثوا بالمقاعد جيدا، لم يكونوا أولئك الذين قفزوا إلى الأرض أو قفزوا من الشباك أثناء الحادث.. الذين نجوا كانوا أولئك الذين لم يركبوا القطار أصلا، أو الذين قفزوا منه عندما عرفوا في بداية الأمر أن المسير يؤول إلى حادث لا فرار منه..

وانت، كان يمكن أن تقفز من القطار قبل أن يسرع، لكنك ظللت عليه واقفا وأنت تعرف أن السكة تالفة، وأن المحرك به عطل، وأن الرحلة نهايتها حادث كبير سيقتل قلبك إن لم يقتلك. لكنك ظللت عليه واقفا تقول أن الحياة من شباك القطار تبدو أجمل، وأنك تعشق الهواء القادم من النافذة، أسعيد الان أنت؟!

المشكلة التي تحدث، أننا ندرك الأمر جيداً، بحذافيره..

لكننا ولغاية لست أدركها، نقنع نفسنا أن أمرا سينقذنا سيحدث نحن لا نعلمه. الغريب في الأمر، أن هذا الأمر لم يحدث لنا سابقاً ولو لمرة ..

الواقع ليس جميلاً بما يكفي، وأنت ضعيف ووحيد بما يكفي، ومن يرفعون أجنحتهم كثيراً، سيكسرها الزمن، ولقد كسر قلبي، ولقتل رجلٍ خيرٌ وأهون عند الله من كسر قلبه. وإن في قلبي من الخراب ما فيه، وإنه لأوهن من بيت عنكبوت، وإنه ما كان لقلبك أن يكسر لو أنه ما رق حباً.. والغياب، موجعٌ كثيراً، لذا .. إذا أردتم الذهاب فلا تأتوا أبداً..

الأيام تلك التي تقوقعت فيها على نفسي، خسرت فيها من الأصدقاء ما يكفي.. تسألينني كيف يتسرب الأصدقاء من قلبي واحداً تلو الآخر وأنت التي قد ثقبته في بادئ الأمر؟! وإن شريان القلب الذي تعلق بك كثيراً، بعث في الحياة اللاحقة عود ناي..

المشكلة، أن الذين يتكئون عليك يريدونك قوياً هادئاً بكل ضعف عودك وكل ضجيج قلبك. وماذا قد يحدث لهم إن انكسرت أنت وهم يستندون عليك؟ وقتها ستكون أنت السبب في سقوطهم، وسيلومونك على سقوطهم، وأنت الذي التوى ظهرك في محاولتك الصمود. ماذا لو قررت الشمس في يوم من الايام أن لا تشرق؟ يوم واحد فقط.

ماذا لو قرر قلبك التوقف عن العمل فجأة هكذا..
دون سابق إنذار..

لذا أرجوكم، لا تطلبوا مني أن أكون قوياً دائما وأقول أنني سعيد وأنني بخير، أنا لست بخير. ضحكاتي مصطنعة جدا، وقوتي ليست سوى دراما. أنا فارغ من الداخل، محبط جداً، هش، ومريض إلى حد لا يوصف، أنا مجرد بلاستيك. لا أستطيع النوم لأكثر من أربع ساعات. بريق عيني زائف، مزاحي أحاول به إخفاء بحة الصوت في، يداي ترجفان كثيراً، لساني إلى اليوم – يتمرد علي وأنا أحاول إخفاء تأتأته تلك، في قلبي من التجاعيد ما في بيتٍ من مئة سنة من التشققات. أنا هادئ من الخارج لكنني كالبحر، كم من سفينة غرقت فيه، كم من أسماكٍ ماتت هناك، كم من طيور ظلت بعيدة تحملق فيه، وتحلق فوقه وتشرب منه، وتخشى الاقتراب أكثر، وكم من بحار ظل لسنين عديدة يصارع أمواجه، عدى عن أولئك الذين فروا إليك ثم رأوا أن اليابس أكثر أمناً.. أكنت مخيف إلى كل تلك الدرجة ليتركوك ويهربوا إلى اليابس؟!

وإنه سبحان الذي سواك حرباً، كلما هزمت فيها انتصرتَ، وإنه سبحان الذي سوى قلبك أرضاً، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك.

والغزاة- كل الغزاة- يفرون من جيوش ترميها بالحجارة في اخر المطاف، ولو طال بقاؤهم. كم من طفل. فيك جرب أن ينام؟ لكن سواد قلبك وضجيجه منعاه من النوم، يريدون النور والهدوء..

ويتكئون عليك؟! وأنت الذي هيهات لو تستطيع حمل ثقل نفسك، يستندون عليك دون أدنى معرفة. منهم أن عمادك أعواد ثقاب. قد تشتعل في أية لحظة، فيك من القوة ما لا تكفيك ومن الضعف ما يكفي المدينة.

ويتكئون عليك؟! وأنت الضعيف إلى درجة اللامبالاة، انكسرت إلى الدرجة التي أصبحت عظامك غير قادرة على بناء نفسها مجددا، لديك من العقد النفسية ما يكفي لتصبح مشفى، ومن الجروح والاكتظاظ ما يكفي لكي تصبح مخيم، ومن الموتى في هذا القلب ما يكفيك لتصبح مقبرة.

عندما يسألونك عن انجازاتك في هذا العام، قل لهم أنك بقيت حياً رغم كل ما حدث..

السواد؟! يا ابن السواد. كم من سنة أخرى تحتاج لتقتنع أن كل ما وصلت إليه ما كان إلا سراباً.

لذا رجاءً، لا تطلبوا مني أن أكون قوياً دائماً.

نحن بحاجة أحياناً لأن نسقط في الهاوية، وأن نصرخ ملء فاهنا، أن نبكي ما استطعنا، أن نبالغ في البكاء، أن نتوحد على أنفسنا، أن نبصق في وجه هذا العالم، وأن نضعف بكل ما أوتينا من قوة..

***

منذ أشهر كثيرة، كلما كنت أتهجد في محراب الله داعياً إياه إياك، اعتاد الملاك تدوين اسمك في صحيفته ورفعها للرب مراراً وتكراراً.. نزل البارحة من على كتفي وأيقظني من النوم ودعاني لشرب فنجانين من القهوة لنجد حلاً للمشكلة، أقصد مشكلة تعلقه بك، فتعلقي أنا ليس له حل..

لمّا أن قلت « أحبك»، رأيت التاريخ يعاد من نهايته حتى بداية التكوين، رأيت الحربين العالميتين تنتهيان ليعود القتلى إلى بيوتهم ويعود الجند ليعانقوا خصور زوجاتهم، الثورة الصناعية انتهت والفلاحون عادوا يجتمعون في الحقول، وعادت الأشياء كلها إلى بساطتها السابقة، وأنزل المسيح عن صليبه وعاد إلى حضن أمه..

ظلت الأشياء تعود وتعود حتى قد عدت آدم وكنتِ حواء، وكنا وحيدين في الجنة.. لما رحتِ، رأيت نفسي أنزل من الجنة مرة أخرى، وحدثت كل هذه المآسي مرات كثيرة..

كنا قد اعتدنا أن نمسك بيدي بعضنا كلما قطعنا المفرق ذاك. في إحدى المرات نسيتُ الأمر، وعندما وصلنا منتصف الشارع عدت أدراجي إلى الرصيف ملتقطاً يدها

التي ظلت تنتظر رجوعي.. قبل فترة، كررت الرجوع إلى الرصيف ثلاث. وعشرين مرة.. لكن لا يدا كانت تنتظرني هناك..

كالطريق وكالمسافر كنا، كنت أوصلك إلى ما كنتِ تريدين، وكنت تدوسينني في كل خطوة..

نسيت إخبارك.. الأرجوحة التي قلتِ أنها ستستمر بالتأرجح ذهاباً وإيابا توقفت البارحة، سنسال ال(RBJ) الذي أهديتني إياه كسر، ورائحتك أختفت عن سترتي تلك، محل البالونات أغلق، وبلدية رام الله منعت بائع شعر العروس أن يبيع في الشوارع، وحتى العجوز التي شربنا الشاي على درج بيتها، تراكمت عليها الديون وباعت ذلك المنزل، وتعيش الآن في بيت العجزة..

وهذه الدنيا مبهمة إلى حد لا يطاق، فعندما يقول أحدهم بأنه يحبك، ذلك يعني أنه يحبك فقط ولا يعني بتاتاً أنه يريدك بجانبه. إن قال بأنه يموت فيك، ذلك لا يعني بأنه يريد أن يعيش معك. ان كان الجو صافٍ ولا فرصة لتساقط الأمطار، قد تتساقط إن وقعت في الحب، والوقوع في الحب يشبه كثيراً الوقوع من حافة عمارة أثناء محاولتك اصطياد نجمة معلقة في السماء، المشكلة أن

الباب الذي دخلته يوماً لن تخرج منه، والأبواب الكثيرة تعلمك الوحدة، وإن كنت وحدك في مكان هادئ ، ذلك لا يعني أن لا ضجيج في المكان، ضجيج قلبك يكفي، وحتى امتلاء المكان بالأكسجين لا يعني بالضرورة أنك لا تختنق، وعليك أن تدرك أنه حتى صور الإشعاع لا تكشف عن كامل انكساراتك، «وكيف يمكن أن تصبح كاتباً ؟» ذلك سؤال وجيه.. اجعل امرأة تتلاعب بعواطفك..

قانون نيوتن في الجاذبية كاذب، لا شيء يمكن أن يظل مطموراً للأبد، في نهاية الأمر، كل الأشياء ستطفو على السطح، الأمور الأكثر ثقلاً ستطفو أولاً..

لم تكوني ضعيفة يوماً، كنت تحاولين جعلي أصدق أنك ضعيفة.. وكنت أحبك إلى تلك الدرجة التي جعلتني أصدق كل شيء.. وأنا مستعدٌ لتصديقه مجدداً إن عدتِ، مستعدٌ لتصديق كل كذباتك، مستعد لأن أحبك لمرات كثيرة وأن أكذب نفسي لأجلك..

في 2017/1/18 كانت قد وصلت الأخبار عن خطبة
باهي ونهاوند

نـهاوند تزوجت قبل توقيع هذه الروايـة بثلاثة أشـهر تقريبا

***

كنت قد جلست أعيد تذكر الأشياء كلها، من بداية القصة إلى نهايتها حينما طرقت أمي – أمه – الباب ..

- كل إشي تمام معاذ؟
- كل إشي تمام يما..
- تصبح عخير..

وقد ابتعدت عن الباب قليلاً قبل أن أخاطبها

- يما، سكري الباب لو سمحت ..
- أسكر الباب؟ دايما كنت تحكيلي ما أسكرش..
- المرة سكريه لو سمحت..
- متأكد؟
- متأكد.

***

وقد أغلق الباب :

ما الفكرة من وجود ظلك في الوقت الذي لست موجوداً فيه؟ وما الفكرة من وجودك ما دام عدمك يغني عنه؟ أكان يتوجب عليك أن تغرق أكثر وأكثر لتدرك أن هذا هو البحر؟!

في هذا الوقت الذي كنت تنتظر فيه من قبل- بكامل أناقتك- أحداً ليقول لك أن الأمر قد مرّ بخير، أنت الآن لا تحتاج أحدهم ليقنعك بذلك، لأنك مقتنعٌ تماماً أن الأمر قد مر – كيف ما مر- ولكن ليس بخير.. وفي الوقت الذي كنت تنتظر فيه الضجيج يومياً، الآن لا تنتظر شيئاً غير الهدوء، الهدوء التام ما بعد ضجيج تلك المرحلة..

في هذه السنة، ولدت من جديد من محرقتك، وصرت أقوى وأقوى.. ولكن يتوجب عليك الآن أن تعترف أنك قد حضرت المحرقة في نهايتها لتحرق نفسك من جديد..

سنة كاملة كانت مليئة، لقد بقيت حياً ولكن وكي لا اكذب عليك يتوجب علي قول ذلك .. لقد تركوك على قيد الحياة لأنك لم تسبب إزعاجاً لهم، اعتبروك نسخة مقلدة، زائفة، ورديئة، وجودها يشبه عدمها، صورة لإنسان فقط، بسيط إلى الحد الذي قد تتفكك فيه بسهولة، تركوك للحياة لأنهم

أدركوا أنك دون أدنى تأثير، ولا يريدون إيجاع رؤوسهم بقتلك، أيزعجهم وجود كاتب مثلاً؟! لا .. بتاتاً، إنما يزعجهم وجود من يزعجهم، يزعجهم من لا يسير مع القطيع، وأنت لا تزعجهم..لذا قد بقيت حياً. وكم هم الذين يغني غيابهم عن وجودهم ولا فرق بين وجودهم وغيابهم!

كم منا لا الحياة تعنيه ولا هي الحياة تعنى بها!من حق من أن يعيش؟ أحقٌ هو للجميع؟ كم من أناس يعيشون على شبه المستديرة بأشباه حياة؟! أبتَّ تدرك الآن أن الحياة لا تسير هكذا وأن أيدٍ خفية هي من تحرك كل شيء؟!

وأنك- بكل ثقلك- محض دمية بأيديهم، أراضٍ الآن أنت أن تبقى - جملة معترضة قد تحذف ولا تنقص للنص معنى؟!- هكذا، وماذا الآن؟ أتريد إقناعي بأن هذا الهدوء هدوء ما قبل العاصفة؟ وأنت الذي قد رميت كل ثلوجك قبل أن يأتي الشتاء؟ ماذا قد حضرت للشتاء القادم؟ لنتفق.. إما ان تكون الريح أو تبحث عن أقرب مدفأة، وتجلس هادئاً منتظراً العاصفة أن تنتهي؟

منذ متى كنت أنت شيئاً غير العاصفة؟! عشرون عاماً قبلاً؟ لا يهم.. تلك أيامٌ خالية، وأنت الشتاء الذي ينتظره الجميع.. أتعبت وأنت الذي تنكسر الشواطئ على عيونك ولا تنكسر أنت؟! قلت لك منذ البداية، إذا أردت أن تنكسر

فانكسر في بداية الأمر، لم تسمع كلامي بتاتاً، ظللت تنتظر حتى اشتد ساعدك وقوي عودك، واصطدمت بجدار قوي، حطمته.. لكن، يتوجب عليك الآن أن تعترف لنفسك، ما هو الشيء الذي قد حطم في نهاية الأمر؟ الجدار أم عظمك؟

قلت لك في آخر مرة رأيتك فيها، لا تتعلق بشيء، بفكرة، بشخص، بمكان، أو زمان.. لا تتعلق. قلت لك تجرد من كل شيء وتعرى من كل الأشياء عداك. لكنك كابرت وقلت أن هذه آخر مرة، أخرمرة، آخر مرة، آخر مرة.. وفي الوقت الذي احتل فيه العالم، أنت غير قادر حتى على أن تحدد من هو عدوك، وماذا تريد أن تكون أنت؟ ولم؟ ومتى؟

- سنرجع إلى ذلك الأمر؟

- يتوجب علينا التقدم في البداية ثم سنجرع.. ولكن، وما الفائدة إن كنا نعيش في نهاية الأمر في دائرة مغلقة؟!

- أتعرف ذلك الإحساس عندما تحاول أن تكون مختلفاً، وأن تخرج من الدائرة التي يعيشها الآخرون، وأن تبذل قصارى جهدك لتفعل هذا الأمر، وبعد فترة يتضح لك أن كل ما فعلته أنك قد حولت صورة الدائرة إلى مربع،

وظللت عاكفاً بداخله، وحيد، منعزل، مغلق، ومكسور كثيراً ؟

ـ هل ما زلت على قيد الحب؟

ـ ربما.. وربما لا..

ـ لقد سمي وقوعا في الحب، وتستغرب لماذا انكسرت بعده؟!.. صدقني، الشخص الوحيد القادر على على جعل حياتك مختلفة هو أنت، ابتعد عن الحب والصداقة وأدمن الحياة..

***

وإنني وإذ أنهي هذه الرواية، فإنني أضع الحد لكل شيء، ذلك الحد الفاصل بين الشك والإيمان، والحب والكراهية، والحد لأن تكمل قصتنا..

ربما تكون كل هذه التفاصيل محض وهم قد وقعت فيه، ربما تكون الصدف كبيرة جداً، وأكون أنا – في نهاية المطاف - المذنب، وتكونين أنت ملاكاً أسقط من الجنة، ربما تكونين نقية إلى الحد الذي تلوثت فيه ماؤك بالافتراضات الكثيرة، ربما لك يكن ذنبك أن كان والدك والدك، وربما لم يتعمدوا قتله، ربما عرف اسم معاذ في المشفى من أحد الممرضين، ربما التقيتِ به صدفة، ربما عدت بعد الاشتياق إلي، وربما لم تكذبي عليَّ ولو بكلمة، ربما تكونين أحببتني بصدق .. لكن، في نهاية الأمر، هذا هو الحب يا صغيرتي، عليك إكماله، وإن جعله ناقصاً أكبر جرمٍ قد ترتكبيه..ورحم الله امرئٍ ما كان قلبه على قدر الحب، فأوقفه عند حده. وإنه من كان قلبه هش، فلا يرمي قلوب الناس بالحب..

كان يمكن أن لا تكتب هذه التفاصيل هكذا، كان يمكن أن تكون النهاية مختلفة تماماً، إلا أن الحياة في نهاية

المطاف ليست وردية بتاتاً، وإننا كل ما حاولنا إصلاحها تعقدت أكثر وأكثر.. وأنت جميلة جداً إلى حد لا يطاق، وأنا مخذول إلى حد لا يطاق، ونحن الاثنان ضعيفان، وسنبقى ندور في دائرة إلى مالانهاية في هذا الزحام..

كم تمنيت وأنا أكتب هذه الرواية - روايتك - أن لا أنشرها على الملأ أبداً، وأن أبقى محتفظاً بها لك، إلى ذلك اليوم الذي تجلسين فيه وتتكئين فيه على كتفي وترددين ثلاثاً « إقرأ، إقرأ، إقرأ» فأحضنك، وتدثرينني أنت بشعرك، واقرأ وأنا ألعب بخصلاته واحدةً واحدة..

كم تمنيت لو تكون هذه الرواية روايتك وحدك، وكم تمنيت لو أكون كاتباً لك فقط، كلما أعجبتك جملة كافأتيني بقبلة أو كلمة « أحبك»، لكتبت وقتها أدباً لم يكتبه دويستفيسكي حتى..

ستقرئين هذه الرواية وحدك، وأنت مستلقية على السرير، ستبكين كثيراً، ستتذكرين أصغر التفاصيل التي حدثت، ثم في نهاية الأمر ستغلقين الكتاب.. وتكملين حياتك..

أما أنا.. سأبقى كالجرذ أتقوقع في حزني، كلما كبرتُ

ضاق المكان بي، أتلقى رسائل المعجبين، وابصق على نفسي وعلى كل ما حدث..

هذا الشخص الذي لم تكتمل مشاعره يوماً، لم تكتمل قصة حبه.. كيف بإمكانه إكمال نص؟!

الأمر انتهى.

إضافة:

طرق إسقاط الشباب الفلسطيني في الاونة الأخيرة تعددت وكثرت، في بعض الأحيان تكون الأسماء عشوائية، في أحيان أخرى ينتقون فريستهم، لا يهمهم الفترة الزمنية بتاتا˚ بقدر ما تهمهم النتيجة، في بعض الأحيان تنجح الأمور معهم، أحيانا˚ أخرى يقتلون من يحاول كشفهم، أما في بعض الحالات يطمرون القصة ويبحثون عن فريسة أخرى..

ما حدث في هذه الرواية هو بمثابة بذور لأشياء أكبر، ربما تكون محاولة، وربما تكون قصة حب فاشلة ليس أكثر.. لكن في النهاية، هذا ما حدث، وليس باليد حيلة غير نشر هذه الرواية..

الساعة الآن أكملت الخامسة وخمس عشرة دقيقة، وعادت للدوران..

وقد كانت صفعة الله على هيئة حفنة تراب..
ليوقظك..


الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

اعتراف:

أنا لست الكاتب الحقيقي لكامل هذه الرواية،
أنا شخصان مني، أحدهما قتل في حادثة سير والآخر
من أكمل كتابة هذه الرواية.
حدث الأمر في السادس والعشرين من حزيران المنصرم،
حين دعاني معاذ جهاد الحقيقي للتمشي معاً ، وعرض
علي شيئاً لم يكن في الحسبان يوماً ، أن أصبح أنا هو
بكامل تفاصيله..
لن تصدق، وليس المفروض منك أن تفعل، لكننا نشبه
بعضنا – شكلاً – إلى درجة كبيرة، الفرق أنه قوي،
متماسك، واثقٌ من نفسه.. بعكسي، أنا الضعيف الهش الذي لم يكن..
ووافق أن يكون بديلاً عن نفس قد توفت.
اتفقنا أن أصبح أنا هو على شرطٍ قد أخللت به، أن لا أحب نفس الأنثى التي قد أحبها هو.
وبعدما وافقت بسرعة، أطلق قهقه كبيرة وقال ": أنت لا تعرف ما ينتظرك الآن"..
بعد فترة، عرفت كم كان صادقاً، و كم كنت أبلهاً بالموافقة على هذه الخديعة...

***

معاذ جهاد مسالمة

فلسطيني من سنجل / رام الله
"طالب في كلية الهندسة في جامعة بيرزيت"
صدر للكاتب : رواية "لا تقرب النساء"
للتواصل: muadhjehad@gmail.com




978 - 9938 - 9583 - 2 - 4